

النسخ في الحديث عند بعض الأئمة

إسماعيل محمد أمين

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد: فإن علم النسخ عموماً علم واسع جداً، سواء وقع في القرآن أو في السنة، بل إنه من الموضوعات الخطيرة التي شغلت أفكار كثير من العلماء على اختلاف الملل والنحل قديماً وحديثاً، وكثر الجدل والخلاف حولها، فأنكرت فرق من اليهود والنصارى والروافض وقوعه، وأوله بعض أفراد هذه الأمة. ثم إن معرفة النسخ والنسخ في أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وفي سنته علم خاص من علوم الحديث الشريف، وإنه علم له أهمية كبيرة لا تخفى على من له صلة بالعلوم الشرعية، وخاصة بالحديث النبوي الشريف، يقول الإمام الحازمي رحمه الله: "... إذ هو علم جليل ذو غور وعموض، دارت فيه الرؤوس، وتاهت في الكشف عن مكنونه النفوس، وقد توهم بعض من لم يحظ من معرفة الآثار إلا بآثار، ولم يحصل من طريق الأخبار إلا إخبار، أن الخطب فيه جليل يسير، والمحصول منه قليل غير كثير، ومن أمعن النظر في اختلاف الصحابة في الأحكام المنقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم اتضح له ما قلناه". وقال الزهري رحمه الله: "من لم يعلم النسخ والنسخ خلط في الدين"^(١). قال الإمام النووي: "وهو فن مهم صعب". وقال الحافظ ابن الصلاح: "هذا فن مهم مستصعب"^(٢). ثم إن النسخ هو أحد المسالك التي سلكها العلماء في إزالة التعارض بين الأحاديث المختلفة، ولأهميته ولدقته وعموضه ألف العلماء المتقدمون فيه تصانيف عديدة ولكن معظمها مفقودة وأما الكتب المشهورة المتداولة للأئمة المتقدمين فهي خمسة على حسب اطلاعي وهي كالتالي:

١- الإمام الحازمي، الاعتبار في النسخ والنسخ في الحديث، تحقيق: أحمد الطنطاوي، دار ابن حزم، ١٤٢٢هـ

١١٣-١١٤.

٢- الإمام النووي، تقريب النواوي مع شرحه تدريب الراوي، تحقيق: أبو قتيبة الفاريابي، مكتبة الكوثر بالرياض،

١٤١٧هـ، ٢/٦٤٣، الحافظ ابن الصلاح، مقدمة ابن الصلاح مع شرحه التقييد والإيضاح، دار الحديث، بيروت،

١٤٠٥هـ، ص ٢٣٨.

- ١- كتاب ناسخ الحديث و منسوخه لأبي بكر الأثرم المتوفى ٢٦١هـ.
- ٢- الاعتبار في الناسخ و المنسوخ في الحديث للإمام الحازمي الهمداني المتوفى ٥٨٤هـ.
- ٣- كتاب ناسخ الحديث و منسوخه لابن شاهين المتوفى ٣٨٥هـ.
- ٤- إعلام العالم بعد رسوخه بحقائق ناسخ الحديث و منسوخه للإمام ابن الجوزي المتوفى ٥٩٧هـ.
- ٥- رسوخ الأخبار في منسوخ الأخبار للإمام الجعبري المتوفى ٧٣٢هـ.

إن الناظر - في الكتب المطبوعة المذكورة - لم يخرج بنتيجة، لأن مصنفها قد قاموا بجمع الروايات التي يبدو ظاهرها التعارض، ثم ادعى فيها النسخ، بل إن بعضهم قد جمعوا الروايات بمجرد التعارض، ثم إن بعضهم تساهلوا بحيث أنهم جمعوا الروايات المدعى فيها النسخ مع أن الأحاديث الواردة في الباب غير ثابتة، فهذا القسم لا يدخل في باب النسخ أصلاً، فالكتب المؤلفة في الفن لم تكن محررة، لأنهم أحياناً يرجحون، وأحياناً يسكتون عن الترجيح. ثم إن هذا الموضوع كثر فيه الخلاف بين العلماء وذلك لأمرين: (أ) لوجود الاختلاف في مفهوم النسخ بين المتقدمين والمتأخرين. (ب) بسبب اختلاف وجهات النظر والفهم لقضايا النسخ و المنسوخ، وخاصة بسبب الاختلافات في المذاهب الفقهية، فبعضهم يدعي النسخ في مسألة، والآخر يردده، فهذه الظاهرة تقتضي من الباحث التأني في الدراسة في ضوء قواعد المحدثين في دفع التعارض بين الروايات.

وسوف يكون الكلام في هذه المقالة المختصرة عن معنى النسخ لغة واصطلاحاً ودلائل النسخ وأماراته وتراجم موجزة لأصحاب الكتب الخمسة، والتعريف بكتبهم ومثاليين من المسائل التي ثبت فيها النسخ كنموذج للدراسة.

أولاً: تعريف النسخ في اللغة:

يدور معنى النسخ في اللغة على معنيين:

الأول: بمعنى الرفع والإزالة، كقولك "نسخت الشمس الظل" أي أذهبته وحلت محله.

الثاني: بمعنى النقل والتحويل، نحو قولك: "نسخت الكتاب" إذا نقلت ما فيه (٣).

ثانياً: تعريف النسخ في الاصطلاح:

وقد اختلف العلماء المتقدمون والمتأخرون في اصطلاح النسخ فعند المتقدمين معناه: البيان،

٣- انظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ٦١/٣، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر،

بيروت، ١٣٩٩هـ، ٥/٤٢٤.

فيشمل تخصيص العام، وتقييد المطلق، وتبيين المجمل، ورفع الحكم بجملته. وقد أشار الحافظ ابن القيم وشاه ولي الله إلى: أن اختلاف المتقدمين والمتأخرين في معنى النسخ الاصطلاحي من أقوى وجوه الصعوبة والإشكالات الواقعة في باب النسخ، والله أعلم^(٤).

وأما النسخ في اصطلاح المتأخرين فقد تنوعت فيه عباراتهم، ومن أجمع ما وقفت عليه من تعريف العلماء للنسخ ما يلي: هو عبارة عن رفع الشارع حكماً منه متقدماً بحكم منه متأخر. قال به ابن الصلاح وبنحوه عرّفه الحافظ ابن حجر والسيوطي والسخاوي والشوكاني^(٥).

ثالثاً: دلائل النسخ وأماراته:

من المعلوم أن كل ما أنزل الله سبحانه وتعالى في القرآن، أو بيّنه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم يجب على الناس اتباعه، فلا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول في شيء من القرآن والسنة: هذا منسوخ، إلا بيقين، لأنه إذا قال في حكم شرعي أنه منسوخ بدون دليل، فقد حكم بأنه لا يعمل به، فهذا يعتبر أن دعواه باطلة إلا أن يأتي برهان قوي على صحة قوله، ولأجل خطورة إدعاء النسخ في الأمور الشرعية، وضع العلماء أصولاً يعرف بها النسخ، وهي تعرف في كتب العلماء باسم "دلائل النسخ أو أماراته"، ومن بعض الأمارات التي ذكرها العلماء لمعرفة النسخ في الحديث النبوي الشريف:

- ١- ما يعرف النسخ فيه بتصريح النبي صلى الله عليه وسلم كقوله: "كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها"، وقد ذكر العلماء بأن هذه الأمانة أصرح الإمارات المعتبرة، فهو نص قاطع في دلالة على النسخ.
- ٢- ما يعرف نسخه بتصريح صحابي: كقول جابر رضي الله عنه: "كان آخر الأمرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك الوضوء مما مسته النار".

٤- انظر: شيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى، وزارة الشؤون الإسلامية بالرياض، ١٤١٦هـ، ٢٩/١٣، ٢٧٢، ١٠١/١٤، ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٦هـ، ٤٢/١، شاه ولي الله الدهلوي، الفوز الكبير في أصول التفسير، مكتبة علوم إسلامية، لاهور، ص ٥١.

٥- انظر: الحافظ ابن حجر، نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، فاروقي كتب خانة، ملتان، ص ٥٨، مقدمة ابن الصلاح، ص ٢٣٩، الحافظ السيوطي، تدريب الراوي، ٢/٦٤٤، الإمام الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، محل محمد أمين الخانجي بمصر، ١٤٢٧هـ، ص ١٧٢، الحافظ السخاوي، فتح المغيب، تحقيق: علي حسين علي، وزارة الشؤون الإسلامية، الرياض، ١٤٢٤هـ، ٤٦/٤.

- ٣- ما يعرف بالتاريخ: وله أمثلة كثيرة كما قال الحافظ ابن حجر .
- ٤- ما يعرف بالإجماع: ومثل لهذه الأمانة الحافظ ابن الصلاح والنووي والسيوطي بحديث: "قتل شارب الخمر في المرة الرابعة" فإنه منسوخ عرف نسخه بانعقاد الإجماع على ترك العمل به. والله أعلم^(٦).

رابعاً: تراجم موجزة لأصحاب الكتب الخمسة، والتعريف بكتبهم:

الإمام أبو بكر الأثرم:

هو أحمد بن محمد بن هانئ الطائي الإسكافي البغدادي، أبو بكر الأثرم، صاحب الإمام أحمد. ولد الإمام الأثرم بمدينة إسكاف بني الجنيدي التي تقع قرب بغداد وإليها ينسب، ولم يوجد التحديد لسنة ولادته، إلا أن الذهبي قال: "ولد في دولة الرشيد". كان الإمام الأثرم حافظاً كبيراً من الأفراد من بحور العلم، وإماماً من الأعلام المشاهير، وكان ثبناً قوياً ذاكرة، من أذكى الأئمة، وقد شهد على ذلك الأئمة النقاد الكبار. قال الحافظ ابن حجر: "توفي سنة ٢٦١هـ أو حدودها". من مصنفاته ما يلي: السنن في الفقه على مذهب أحمد وشواهد من الحديث، وكتاب السنة، والعلل، وكتاب التاريخ، وناسخ الحديث ومنسوخه^(٧).

التعريف بكتاب "ناسخ الحديث ومنسوخه" للإمام الأثرم وبيان منهجه:

كتاب ناسخ الحديث ومنسوخه للأثرم كما يظهر من عنوانه أنه كتب في الناسخ والمنسوخ في الحديث ولكن الذي يبدو لي أن الإمام الأثرم توسع في ذلك، بحيث أنه جمع الأحاديث بمجرد التعارض، وهو كثير، فلعله اطلع على قول إمام بالنسخ في تلك المسائل، ثم إنه يختار مسلماً أو يذكر توجيهه للأحاديث، ثم يفند بعد ذلك الأحاديث المخالفة ببيان ما فيها من العلل، ويذكر أحياناً اختياره ثم يتبعه بذكر الشواهد له من الأحاديث، وأقوال أهل العلم، وأحياناً يذكر وجوهاً متعددة في توجيه الأحاديث والجمع بينها، ثم يختار بعد ذلك أحدها، ويدلل على ذلك، وأحياناً يوجه تلك الأحاديث بدون اختيار منه لتساوي الأمرين عنده، ويرجح أحياناً بين الأحاديث التي ظاهرها الاختلاف بصحة أحدهما على الآخر،

٦- انظر: أبو حامد الغزالي، المستصفى، دار صادر، بيروت، ١٣٢٢هـ / ١٢٨-١٢٩، الحازمي، الاعتبار، ١/ ١٢٨،

مقدمة ابن الصلاح، ص ٢٣٩-٢٤٠، السيوطي، تدريب الراوي، ٢/ ٦٤٥-٦٤٧، ابن حجر، نزهة النظر، ص ٥٨.

٧- انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢/ ٥٧٠، الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة

الرسالة، ١٤١٧هـ / ١٢/ ٦٢٤، الحافظ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ٥/ ١١١،

الحافظ ابن حجر، تهذيب التهذيب، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٧هـ / ١/ ١١٦، ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة،

بيروت، ص ٣٢٠، وانظر ترجمته: مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ١٠١، ١٠٢، للعام ١٤١٤-١٤١٥هـ، عنوان

المقالة: "ناسخ الحديث للإمام الأثرم" للجزء الثالث، تحقيق: أحمد بن عبد الله الزهراني.

وربما أيد قوله بعمل الخلفاء الراشدين وغيره من وجوه الترجيحات، وإن ظهرت له أمانة النسخ في الأحاديث فإنه يختار النسخ ويرجحه، ولكنه قليل بالنسبة إلى اختياره لمسلكي الجمع والترجيح.
الإمام أبو بكر الحازمي:

هو محمد بن موسى بن عثمان بن موسى بن حازم، أبو بكر الحازمي الهمداني، الشافعي. ولد الإمام الحازمي بهمدان سنة ثمان وأربعين وخمسمائة من الهجرة النبوية، مع أن الإمام الحازمي توفي وهو شاب، احتل مكانة عالية لدى العلماء، لأنه رحمه الله في عمره القصير، قد قام بجمع العلوم، وصنف وبرع في فن الحديث والنسب، وكان إماما ذكيا ثاقب الذهن فقيها، بارعا، محدثا، ماهرا، خيرا بالرجال والعلل، متبحرا في علم السنن، توفي الإمام الحازمي في مدينة بغداد في ليلة الاثنين، الثامن والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وله ست وثلاثون سنة.

إن للإمام الحازمي مؤلفات عديدة معظمها في الحديث والنسب، فمن أشهرها: **الناسخ والمنسوخ**، وهو الكتاب الذي طبع باسم **الاعتبار في الناسخ والمنسوخ في الحديث**، وشروط الأئمة الخمسة^(٨).
التعريف بكتاب "الاعتبار في الناسخ والمنسوخ في الحديث":

الكتاب كما يظهر من عنوانه يتناول عن موضوع الناسخ والمنسوخ في الحديث، فالكتاب يعتبر دراسة عملية تطبيقية، لقواعد علمية نظرية، بسطها المؤلف في مقدمته، كما أنه تميز بكثرة المواد العلمية، حتى اعتمد عليه العلماء، أمثال الحافظ الزيلعي في نصب الراية والحافظ ابن حجر في الفتح وغيرهم، فالكتاب من أهم الكتب في بابه، وقد مدحه العلماء، وكان يورد الأحاديث بأسانيد إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وبعد سرد الأحاديث يذكر آراء العلماء في المسألة، ابتداء من الصحابة ثم التابعين، ثم الفقهاء المعروفين، ومنهم أصحاب المذاهب الفقهية. يذكر حجج كل طائفة، ثم يناقش بين الأقوال بأسلوب علمي بعيد عن التعصب مع إبداء رأيه عند الترجيح، وأحيانا يرجح النسخ إذا وجد دليلا على ذلك، أو يجمع بين الأحاديث، أو يختار مسلك الترجيح، وأحيانا يسكت عن ترجيح مسلك من المسالك الثلاثة في إزالة التعارض وهو قليل، ويعلق على الأحاديث كثيرا صحة وضعفا، ويشير إلى طرقه أحيانا، ويسكت أحيانا في الحكم على الحديث، ومن هنا دخل التساهل في منهجه، لأن الحديث أحيانا يكون ضعيفا ويسكت منه ويستدل به، والله أعلم.

٨- انظر ترجمته: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٦٨/٢١، السبكي، طبقات الشافعية، دار المعرفة، بيروت، ١٩٠/٤.

ابن خلكان، وفيات الأعيان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٦٧هـ، ٤٢١/٣.

الإمام ابن شاهين:

هو أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان بن أحمد بن محمد بن أيوب البغدادي، المشهور بابن شاهين، ولد الإمام ابن شاهين في صفر سنة سبع وتسعين ومائتين للهجرة، ونشأ ابن شاهين على طلب العلم والمعرفة، فحفظ القرآن وألم بعلومه وتفسيره، ثم حصل على حديث أهل بلده، ثم ارتحل إلى أهم المراكز العلمية في طول بلاد الإسلام وعرضه، فعرف علم الرجال ومكانتهم في الجرح والتعديل، ومؤلفاته تدل على ذلك، وقد احتل الحافظ ابن شاهين مكانة علمية مرموقة بين علماء عصره، فأثنى عليه الكثير منهم، وسماه الذهبي "رواية الإسلام". كان أبو حفص ابن شاهين كثير التصانيف، وقد أحصى هو بنفسه تصانيفه فبلغ بها نحو ٣٣٠ مصنفاً، ولكن مع الأسف لم يبق من هذه المصنفات الكثيرة إلا القليل اليسير، والعدد الكبير منها يعتبر مفقوداً، ومن كتبه المطبوعة كتاب ناسخ الحديث ومنسوخه لابن شاهين وكتاب تاريخ أسماء الثقات ممن نقل عنهم أهل العلم، توفي الإمام ابن شاهين سنة خمس وثمانين وثلاثمائة من الهجرة، في بغداد^(٩).

التعريف بكتاب "ناسخ الحديث ومنسوخه" لابن شاهين ومنهجه فيه:

كتاب الإمام ابن شاهين ناسخ الحديث ومنسوخه: من أهم ما صنف في علم الناسخ والمنسوخ في الحديث، وموضوعه - كما يظهر من عنوانه - أن كل ما جاء فيه هو ناسخ ومنسوخ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن مؤلفه قصد فيه جمع ما دخله النسخ من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ولهذا توهم بعض العلماء بأن جميع المسائل التي ذكرها ابن شاهين في كتابه هذا دخل في أحاديثها نسخ، ولكن المؤلف رحمه الله لم يستقر منهجه على أمر ثابت في إيراد الأحاديث المتعارضة، ولهذا يصعب الحكم على الأحاديث التي أوردها ابن شاهين في كتابه، هل أن جميعها دخل فيها النسخ أم لا؟ وهو أيضاً أدخل في هذا الكتاب جملة من الأحاديث التي لا يدخلها النسخ، ولكنها متعارضة فيما بينها، بل أنه ذكر بعض المسائل التي لم يثبت فيها حديث، وفي بعضها لم يثبت فيها الحديث المعارض، فإدخال هذه الأحاديث في الكتاب ثم سكوتها عنها أحياناً، يعتبر تساهلاً منه، ومع ذلك أنه كتاب عظيم في بابه، فهو يضم عدداً كبيراً من الأحاديث التي دخلها النسخ، ويخرج في الموضوع الواحد جملة من الأحاديث المتعارضة من طرق متعددة، وقد تفرد في كتابه هذا بمجموعة من الأحاديث، مما جعل كتابه مرجعاً مهماً لتخريج تلك

٩- انظر: تاريخ بغداد، ١١/٢٦٧، سير أعلام النبلاء، ١٦/٤٣٢، تذكرة الحفاظ، ٣/٩٩٧-٩٩٨، ابن العماد،

شذرات الذهب، دار الفكر، بيروت، ٣/١١٧.

الأحاديث، فاعتمد عليه العلماء المحققون في تخريج الأحاديث كالحافظ ابن حجر والنووي وابن الجوزي والزيلعي وغيرهم، كما ضمن كتابه أقوال العلماء والفقهاء، والكتاب مطبوع بمجلد واحد بتحقيق الدكتورة كريمة بنت علي.

يذكر الأحاديث المتعارضة وفي معالجة رفع التعارض تعددت أساليبه: أحيانا يصرح بالنسخ، وأحيانا يتفرد بالتصريح بالنسخ دون غيره مع إمكان الجمع بين الحديثين بكل سهولة، وأحيانا يجمع بين الأحاديث أو يذكر احتمالين: احتمال الجمع والنسخ معاً، وأحيانا يتردد في القول بالنسخ، ويستعمل أحيانا لإثبات النسخ ألفاظاً مثل: "أحسب" و "يحتمل" و "لعله" و "أشبه"، ومثل هذه الألفاظ لا يثبت بها النسخ، لما تحتمله من شك واحتمال، والله أعلم.

الإمام ابن الجوزي:

هو أبو الفرج، جمال الدين، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيدالله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه القاسم بن محمد بن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق، القرشي التيمي البكري البغدادي، الحنبلي، الواعظ، المعروف بابن الجوزي. ولد الإمام ابن الجوزي في بغداد سنة تسع أو عشرة وخمسائة للهجرة، وتوفي في بغداد ليلة الجمعة في الثاني عشر من رمضان بين المغرب والعشاء وذلك في سنة ٥٩٧ هـ كان ابن الجوزي مولعاً بحب العلم ومطالعة الكتب منذ الطفولة، وكان حريصاً في التأليف والتصنيف، حتى ساء فكره وعلت همته، وأصبح له في كل فن مشاركة، وبسبب فضله وعلمه احتل الإمام ابن الجوزي مكانة عالية لدى العلماء، فأثنى عليه العلماء، ذكره المؤرخون بكل خير، كان ابن الجوزي رحمه الله صاحب مؤلفات ومصنفات كثيرة، وطبع من هذه المؤلفات أكثر من خمسين كتاباً منها: نواسخ القرآن، وزاد المسير في علم التفسير، وصيد الخاطر، والموضوعات، والعلل المتناهية في الأحاديث الواهية، وإعلام العالم بعد رسوخه بحقائق ناسخ الحديث ومنسوخه وغيرها من الكتب النافعة في علوم مختلفة^(١٠).

التعريف بكتاب "إعلام العالم بعد رسوخه بحقائق ناسخ الحديث ومنسوخه" وبيان منهجه:

كتاب الإمام ابن الجوزي: إعلام العالم، كتاب عظيم صنف في ناسخ الحديث ومنسوخه، وهو كتاب مهم في بابه، وهو يمتاز من غيره بحسن الترتيب والتبويب والتنسيق وكثرة المسائل الفقهية والتوجيهات، فهو يذكر المسألة ثم يورد أحاديث المسألة المتعارضة بأسانيد، وهو الغالب، وإذا كان

١٠ - انظر ترجمته: ابن كثير، البداية والنهاية، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٢ هـ / ١٣ / ٣٥، الذهبي، السير، ٢١ / ٣٦٧ - ٣٧٣، وابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢ / ٣٢١.

الحديث ضعيفا فإنه يذكر علته، مع ذكر آراء العلماء في رفع التعارض، ويرجح بالتحقيق والتدقيق مما جعل كتابه علميا وفائقا، وصار مصدرا للباحثين في هذا الموضوع، وهو كتاب مطبوع بتحقيق الدكتور أحمد بن عبد الله العماري الزهراني بدار ابن حزم في مجلد واحد. ثم إن الإمام ابن الجوزي تبع ابن شاهين في مادة كتابه العلمية، فهو أورد نفس المسائل التي ذكرها ابن شاهين إلا أن ابن الجوزي يعقب على ابن شاهين بلهجة شديدة لدعوى ابن شاهين النسخ في بعضها إلا في القليل النادر.

الإمام الجعبري:

هو إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل بن أبي العباس، الربيعي الخليلي الشافعي، برهان الدين، واشتهر بالجعبري، ولد الإمام الجعبري رحمه الله في حدود سنة أربعين وستمئة للهجرة، وقد نشأ الإمام الجعبري نشأة علمية، وربي تربية سليمة في أسرة عريقة مشهورة بالعلم والصلاح، حتى نال الإمام الجعبري في عصره منزلة علمية بارزة بين أقرانه، وكان متخصصا في كافة علوم القرآن، وانتهت إليه الرياسة في علم القراءات ومعرفة عللها وأحكامها، كما أنه عالم بارع في الفقه والحديث والتفسير وغيرها، وهو من كبار فقهاء مذهب الإمام الشافعي، توفي الإمام الجعبري في يوم الأحد الخامس عشر من شهر رمضان المبارك سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة للهجرة في بلد الخليل بفلسطين، وله من العمر اثنتان وتسعون سنة.

اشتهر الإمام الجعبري بالتأليف وتدوين العلم، وذكر له محقق كتاب الرسوخ للجعبري مائة وواحداً وخمسين مصنفاً، منها ما يلي: كنز المعاني شرح حرز الأمان من شروح الشاطبية، ونزهة البررة في القراءات العشرة، وشرح التعجيز، وشرح الرائية، ورسوخ الأخبار في منسوخ الأخبار، وغير ذلك^(١١).
التعريف بكتاب "رسوخ الأخبار في منسوخ الأخبار" وبيان منهجه:

فالكتاب، كما يظهر من عنوانه، أنه كتب في باب ناسخ الحديث ومنسوخه، فالكتاب من أهم مصادر هذا الفن، وهو كتاب جيد، بحيث جمع فيه مصنفة المواد الحديثية والأصولية والفقهية، يذكر الأحاديث المتعارضة، ولكنه لم يذكر الأحاديث بأسانيد بل اكتفى بعزو الحديث إلى أصحاب الكتب المشهورة، وقد يعلق على الحديث صحة وضعفا ويذكر علة الحديث، وقد يسكت عنه. وسار المؤلف على

١١- انظر: السبكي، طبقات الشافعية، ٦/٨٢، الحافظ ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل،

بيروت، ١/٥٠، ابن العماد، شذرات الذهب، ٥/٩٨، مقدمة المحقق لكتاب الجعبري: رسوخ الأخبار في منسوخ

الأخبار، تحقيق حسن الأهدل، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٩هـ، ص ٣٣-٦٩.

طريقة الفقهاء في إيراد مسائل الكتاب، فهو يذكر آراء العلماء في عصر الصحابة والتابعين، ثم الأئمة، ثم يعقب بعد ذلك برأي من قال بالنسخ في المسألة، ومن قال بعدمه، ويناقد الآراء، فإن ظهر له النسخ قواه، وإن لم يظهر له رده، وبين الصواب، إما بالجمع إذا أمكن، وإما بالترجيح بين الأدلة، وقد يذكر احتمالين في إزالة التعارض: احتمال النسخ واحتمال الجمع.

خامساً: المثالان مما ثبت فيه النسخ:

المثال الأول: الوضوء مما مست النار:

أولاً: الأحاديث الواردة في الوضوء مما مست النار:

الأحاديث الدالة على الوضوء مما مست النار:

١- حديث أبي هريرة رضي الله عنه، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "توضؤوا مما مست النار" (١٢).

٢- حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "توضؤوا مما غيرت النار" (١٣).

الأحاديث الدالة على ترك الوضوء مما مست النار:

١- حديث ابن عباس رضي الله عنهما: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل كتف شاة ثم صلى ولم يتوضأ" (١٤).

٢- حديث جابر رضي الله عنه قال: "كان آخر الأمرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك الوضوء مما مست النار" (١٥).

١٢- صحيح مسلم مع شرح النووي، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٧هـ، ٣/٢٦٦، رقم: ٧٨٦.

١٣- أخرجه النسائي في سننه، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤هـ، ١/١١٤، رقم: ١٧٦، والحازمي في الاعتبار، ١/٢٣٧، من طريق ابن أبي عدي عن شعبة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة عن عبد الله بن عمرو القاري عن أبي أيوب به. وفيه عبد الله بن عمرو القاري قال الحافظ عنه: "مقبول"، الحافظ ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، تحقيق: أبو الأشبال، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٦هـ، ص ٥٣٠، فالحديث لا ينزل عن درجة الحسن للشواهد والمتابعات، قال الألباني: "إسناده صحيح" كما في صحيح سنن النسائي.

١٤- صحيح البخاري مع فتح الباري، دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ، ١/٤١٠، رقم: ٢٠٧، صحيح مسلم، ٣/٢٦٧، رقم: ٧٨٨.

١٥- أخرجه أبو داود في سننه، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٨هـ، ١/١٠٠، رقم: ١٩٢، والنسائي في سننه، ١/١١٧، رقم: ١٥٨، وابن شاهين في ناسخ الحديث ومنسوخه، تحقيق: كريمة بنت علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ، ص ١٥٧، والحازمي في الاعتبار، ١/١٣٨، من طرق عن علي بن عياش عن شعيب بن أبي حمزة عن محمد بن المنكدر عن جابر به. فالإسناد رجاله ثقات فالحديث صحيح كما صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ١/٣٤٨.

٣- عن محمد بن مسلمة رضي الله عنه نحوه (١٦).

ثانياً: آراء العلماء في الوضوء مما مست النار مع أدلتهم:

مسألة الوضوء مما مست النار قد ذكرها كل من الأئمة: ابن شاهين والحازمي وابن الجوزي والجعبري ما عدا الأثرم فإنه لم يوردها في ناسخه، وقد وردت أحاديث متعارضة في المسألة فاختلقت آراء هؤلاء الأئمة المذكورين في رفع التعارض على قولين:

القول الأول: ذهب الإمام ابن شاهين والحازمي إلى وقوع النسخ في المسألة، حيث أنها أوردا الأحاديث المتعارضة في الباب ثم ترجح لدهما نسخ الأحاديث الدالة على وجوب الوضوء مما مست النار (١٧). وقد استدلت أصحاب هذا القول بأدلة:

١- حديث جابر وحديث محمد بن مسلمة؛ حيث صرحا بأن آخر الأمرين من الرسول صلى الله عليه وسلم ترك الوضوء مما مست النار.

٢- حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول صلى الله عليه وسلم أكل كتف شاة ثم صلى ولم يتوضأ. ووجه الاستدلال من حديث ابن عباس رضي الله عنهما من حيث أن صحبة ابن عباس للرسول صلى الله عليه وسلم متأخرة والرسول صلى الله عليه وسلم توفي وهو ابن أربع عشرة سنة، وقد قيل ست عشرة سنة وقيل ثلاث عشرة سنة كما ذكره الإمام الحازمي (١٨).

٣- الأحاديث الدالة على ترك الوضوء مما مست النار منها حديث ابن عباس وغيره.

القول الثاني: الجمع بين أحاديث الباب المختلفة، وذلك بحمل أحاديث وجوب الوضوء على

الوضوء اللغوي. مال إليه الإمام الجعبري ورجحه الإمام ابن الجوزي (١٩). وقد استدلا على ذلك بحديث

١٦- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، نشر السنة، ملتان، ١٥٧/١ وابن شاهين في ناسخ الحديث، ص ١٥٨، والحازمي في الاعتبار، ٢٤٢/١ من طريق يونس بن أبي خلدة عن محمد بن مسلمة به وفيه يونس بن أبي خلدة سكت عنه أبو حاتم في الجرح والتعديل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٢٧١هـ، ٢٣٨/٩ ولم أجد من ترجم له سوى ابن أبي حاتم وذكر الحافظ في التلخيص الحبير، المكتبة الأثرية، سانغله هل، باكستان، ١١٦/١ هذا الحديث شاهد لحديث جابر وصححه الإمام النووي في المنهاج، ٢٦٦/٣.

١٧- الاعتبار، ٢٣٨/١، ابن شاهين، ناسخ الحديث، ص ١٥٦.

١٨- الحازمي، الاعتبار، ٢٤١/١.

١٩- ابن الجوزي، الإعلام، تحقيق: أحمد العماري الزهراني، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٣هـ، ص ١١٣، الجعبري، الرسوخ، ص ٢٠٣.

عكراش صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أكل مع النبي صلى الله عليه وسلم قصعة من ثريد، ثم أتى بهاء فغسل يده وفمه ومسح بوجهه، وقال لي: "ياعكراش هذا الموضوع مما مست النار" (٢٠).

ثالثاً: مناقشة الأقوال مع الترجيح:

قد اختلف العلماء في إزالة التعارض بين الأحاديث على ثلاثة مسالك:

المسلك الأول:

ذهب أصحاب المسلك الأول إلى ترجيح وقوع النسخ في المسألة؛ وذلك لوجود الأدلة الصريحة على النسخ، كما جاء التصريح عن جابر ومحمد بن مسلمة. واستأنسوا من رواية ابن عباس في ترك الموضوع مما مست النار، لأن صحبة ابن عباس متأخرة فكأنهم استدلوا أيضاً بالتاريخ، بأن ترك الموضوع منه متأخر فيكون ناسخاً لأحاديث وجوب الموضوع.

المسلك الثاني:

الجمع بين الروايات؛ وقد ذهب جماعة من العلماء إلى هذا المسلك حيث قالوا بالجمع بين الروايات وقالوا: إن الجمع إذا أمكن فهو مقدم على النسخ والترجيح، ثم إن هذا الجمع يقويه حديث عكراش كما تقدم. وهو مسلك ضعيف للأمر التالي:

- ١- هذا الجمع فيه نوع من التكلف، لأن المتبادر إلى الذهن في المراد بالموضوع في النصوص الشرعية هو الموضوع الشرعي المعروف.
- ٢- حديث عكراش ضعيف كما تقدم بيان علته.
- ٣- ثبتت في المسألة أمانة النسخ وهي تصريح الصحابة، وقولهم مقدم لأنهم هم الذين شاهدوا التنزيل. وقال ابن عبد البر في الرد على هذا الجمع: "وذهب بعض من تكلم في تفسير حديث

٢٠- أخرج الترمذي في سنته، تحقيق: أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ / ٤ / ٢٤٩، رقم: ١٨٤٨ من طريق العلاء بن الفضل عن عبيد الله بن عكراش بن ذؤيب عن أبيه. وقال الترمذي: "هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث العلاء بن الفضل وقد تفرد العلاء بهذا الحديث ولا نعرف لعكراش عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا هذا الحديث". وقد ضعفه ابن عبد البر، وقال البخاري في التاريخ الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، ٣٩٤ / ٥: "لا يثبت حديثه"، ونقل الذهبي في ميزان الاعتدال، دار الفكر، بيروت، ١٣ / ٣ عن البخاري أنه قال: "فيه نظر" وقال الذهبي: "فيه جهالة" وفيه تفرد العلاء بن الفضل وبه أعله الإمام الترمذي في سنته وقال ابن حجر: "ضعيف"، انظر: التقريب، ص ٧٦١، فالحديث ضعيف من أجل العلاء وعبيد الله بن عكراش كما ضعفه الشيخ الألباني في تعليقه على سنن الترمذي.

النبى عليه السلام إلى أن قوله عليه السلام: "توضؤوا مما مست النار" أنه عنى به غسل اليد لأن الوضوء مأخوذ من الوضأة وهي النظافة فكأنه قال: فنظفوا أيديكم من غمر ما مست النار ومن دسم ما مست النار، وهذا لا معنى له عند أهل العلم، ولو كان كما ظن هذا القائل لكان دسم ما لم تمسه النار وودك ما لم تمسه النار لا يتنظف منه ولا تغسل منه اليد؟ وهذا لا يصح عند ذي لب، وتأويله هذا يدل على ضعف نظره وقلة علمه بما جاء عن السلف في هذه المسألة، والله أعلم. وقوله صلى الله عليه وسلم "توضؤوا مما مست النار" أمر منه بالوضوء المعهود للصلاة لمن أكل طعاما مسته النار وذلك عند أكثر العلماء" (٢١).

٤- إن ترك الوضوء مما مست النار هو مذهب الخلفاء الراشدين، وجهور العلماء من الصحابة والتابعين، وهو مذهب فقهاء أهل المدينة ومالك بن أنس، والشافعي وأصحابه، وأهل الحجاز عامتهم، وسفيان الثوري وأبي حنيفة وأصحابه، وأحمد وإسحاق وابن المبارك وغيرهم (٢٢). وقد جمع الخطابي بوجه آخر: وهو أن أحاديث الأمر بالوضوء محمولة على الاستحباب لا الوجوب، واختاره المجد ابن تيمية وتبعه الشوكاني حيث ردا القول بالنسخ، حيث قال الشوكاني: "ولا يخفك أن الجواب الأول إنما يتم بعد تسليم أن فعله عليه السلام يعارض القول الخاص بنا وينسخه والمتقرر في الأصول خلافه" (٢٣). قلت: قول الشوكاني وجيه لو لم يعارضه فهم الصحابي حيث جاء عن جابر رضي الله عنه التصريح بأن الوضوء مما مست النار منسوخ، ثم إنه لم ينفرد بهذا الفهم فقد تبعه على ذلك محمد بن مسلمة كما تقدم، وفهم الصحابة مقدم على من بعدهم لأنهم شاهدوا التنزيل.

المسلك الثالث:

الترجيح بين الروايات؛ وقد نقل الإمام الحازمي هذا المسلك عن عثمان الدارمي في رفع التعارض بين أحاديث الباب فقال: "لما رأينا هذه الأحاديث قد اختلفت فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم واختلف من ذكرناهم في الأول والآخر ولم نقف على الناسخ منها فنظرنا إلى ما اجتمع عليه الخلفاء

٢١- الإمام ابن عبد البر الأندلسي، التمهيد، نسخة مرتبة على الأبواب الفقهية، تحقيق: أسامة بن إبراهيم، طبعة الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٠هـ، ٢/ ١٣٠، ١١٥.

٢٢- انظر: الحازمي، الاعتبار، ص ٢٣٧، وأخرج البخاري في صحيحه، ١/ ٤١٠ معلقا عن أبي بكر وعمر وعثمان أنهم لا يتوضؤون مما مست النار. وقال الحافظ في فتح الباري، ١/ ٤١١: "وقد وصله الطبراني في مسند الشاميين بإسناد حسن".

٢٣- الإمام الشوكاني، نيل الأوطار شرح متقى الأخبار، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٣هـ، ١/ ٢٦٢.

الراشدون والأعلام من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم"، ثم رده بقوله: "غير أن أكثر الناس يطلقون القول بأن الضوء مما مست النار منسوخ ثم اجتمع الخلفاء الراشدين وإجماع أئمة الأمصار بعدهم يدل على صحة النسخ والله أعلم" (٢٤). وهذا مذهب مرجوح لأن مذهب الترجيح، إذا تعين النسخ، لا يصار إليه، وفي مسألتنا قد تعين النسخ فيجب المصير إليه والله أعلم. قلت: بعد هذا البحث والمناقشة فالذي ترجح لدي والعلم عند الله أن الأحاديث الدالة على وجوب الضوء مما مست النار منسوخة وذلك لظهور أمرين من الأمور التي يعرف بها النسخ:

- ١- تصريح الصحابي بأن ترك الضوء كان آخر الأمرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء عن جابر ومحمد بن مسلمة رضي الله عنهما.
- ٢- ثبوت النسخ بالتاريخ والأحداث أيضًا، وذلك أن ابن عباس رضي الله عنهما ممن روى حديث ترك الضوء مما مست النار وهو صحب النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح فيكون حديثه متأخرًا (٢٥). ثم إننا قد رأينا أن أوجه الجمع بين الأحاديث كانت ضعيفة فالمصير إلى النسخ في المسألة هو المتعين فالذي استقر عليه العمل هو عدم الضوء مما مست النار فنقول: إن أصل المسألة قد وقع فيها النسخ إلا أنه يستثنى منها وجوب الضوء من لحوم الإبل للدليل خاص به، كما ثبت ذلك من حديث جابر بن سمرة والبراء. والله تعالى أعلم (٢٦).

المثال الثاني: مما ثبت فيه النسخ مسألة صيام يوم عاشوراء:

أولاً: الأحاديث الواردة في صيام يوم عاشوراء:

الأحاديث الدالة على الأمر بصيام يوم عاشوراء:

- ١- عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: "ما هذا؟" قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: "فأنا أحق بموسى منكم"، فصامه وأمر بصيامه (٢٧).
- ٢- عن سلمة بن الأكوع قال: أمر النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من أسلم أن أذن في الناس: "أن

٢٤- الحازمي، الاعتبار، ص ٢٤٨/١.

٢٥- انظر: الحازمي، الاعتبار، ١/٢٤١، ابن عبد البر، التمهيد، ٢/١٢٣.

٢٦- حديث جابر مخرج في صحيح مسلم برقم: ٤٠٠٠ وحديث البراء مخرج في سنن أبي داود برقم: ١٨٤ صححه النووي في المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ٣/٢٧٢.

٢٧- صحيح البخاري، ٤/٣٠٦ برقم: ٢٠٠٤، صحيح مسلم، ٧/٢٥١ برقم: ٢٦٥٣.

- من أكل فليصم بقية يومه، ومن لم يكن أكل فليصم، فإن اليوم يوم عاشوراء" (٢٨).
- ٣- عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان يوم عاشوراء يوماً تعظمه اليهود وتتخذة عيداً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صوموه أنتم" (٢٩).

الأحاديث الدالة على عدم وجوب صيام يوم عاشوراء:

- ١- عن ابن عمر رضي الله عنه: "صام النبي صلى الله عليه وسلم عاشوراء وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك وكان عبد الله لا يصومه إلا أن يوافق صومه". وفي لفظ عند مسلم وابن شاهين وغيره: "إن أهل الجاهلية كانوا يصومون يوم عاشوراء، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صامه والمسلمون قبل أن يفترض رمضان، فلما افترض رمضان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن عاشوراء يوم من أيام الله فمن شاء صامه ومن شاء تركه" (٣٠).
- ٢- عن جابر بن سمرة رضي الله عنه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بصيام يوم عاشوراء ويحثنا عليه ويتعاهدنا عنده، فلما فرض رمضان لم يأمرنا ولم ينهنا عنه ولم يتعاهدنا عنده" (٣١).
- ٣- عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يوم عاشوراء عام حج على المنبر يقول: يا أهل المدينة أين علماءكم؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "هذا يوم عاشوراء ولم يكتب الله عليكم صيامه، وأنا صائم، فمن شاء فليصم ومن شاء فليفطر" (٣٢).

ثانياً: آراء العلماء في صيام يوم عاشوراء:

ذكر أحاديث صوم عاشوراء المختلفة كل من الأئمة: الأثرم وابن شاهين والحازمي وابن الجوزي والجبيري، واتفقوا على وقوع النسخ في المسألة إلا أن ابن الجوزي سكت عنه، وأما الباقر فإنه قد ترجح لديهم أن الأحاديث التي يستدل بها على وجوب صوم عاشوراء كانت معمولاً بها في أول الإسلام، فلما فرض رمضان نسخ وجوبه وبقي نديه، كما جاء به التصريح من بعض الصحابة كعائشة وابن عمر وجابر بن سمرة رضي الله عنه وغيرهم. واستدل الإمام الأثرم والحازمي بالتاريخ أيضاً وقال الأثرم:

٢٨- صحيح البخاري، ٤/٤٠٦ برقم: ٢٠٠٧، صحيح مسلم، ٧/٢٥٥ برقم: ٢٦٦٣.

٢٩- صحيح البخاري، ٤/٣٠٧ برقم: ٢٠٠٥، صحيح مسلم، ٧/٢٥١ برقم: ٢٦٥٥.

٣٠- صحيح البخاري، ٤/١٢٨ برقم: ١٨٩٢، صحيح مسلم، ٧/٢٤٧ برقم: ٢٦٣٧-٢٦٤٢.

٣١- صحيح مسلم، ٧/٢٤٩ برقم: ٢٦٤٧.

٣٢- صحيح البخاري، ٤/٣٠٦ برقم: ٢٠٠٣، صحيح مسلم، ٧/٢٤٩ برقم: ٢٦٤٨.

"ومما يؤكد ذلك أن معاوية إنما أسلم يوم الفتح، وقد فرض الله عز وجل شهر رمضان قبل ذلك بسنين، ثم حكى معاوية أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخبر الناس: "هذا يوم عاشوراء ولم يكتب الله عليكم صيامه وأنا صائم، فمن شاء فليصم ومن شاء فليفطر" (٣٣).

ثالثاً: مناقشة الأقوال مع الترجيح:

تقدم أن الأئمة المصنفين في ناسخ الحديث ومنسوخه قد اتفقوا على وقوع النسخ في المسألة، وأن صيام عاشوراء كان واجبا قبل نزول رمضان، فلما فرض رمضان نسخت فرضية عاشوراء. ولم أقف على مسلك آخر في المسألة إلا أن بعض العلماء قالوا: إن صيام عاشوراء كان سنة فاستمرت أو نسخ تأكيده، وقيل: نسخ ندبه بالجواز، كما أشار إلى هذه الأقوال الإمام الجعبري (٣٤). لكن أكثر العلماء ذهبوا إلى نسخ وجوبه برمضان وبقاء استحبابه. قال الحافظ ابن حجر: "ويؤخذ من مجموع الأحاديث أنه كان واجبا لثبوت الأمر بصومه، ثم تأكد الأمر بذلك، ثم زيادة التأكيد بالنداء العام، ثم زيادته بأمر من أكل بالإمساك، ثم زيادته بأمر الأمهات أن لا يرضعن فيه الأطفال، ويقول ابن مسعود الثابت في صحيح مسلم: "لما فرض رمضان ترك عاشوراء". مع العلم بأنه ما ترك استحبابه بل هو باقٍ فدل على أن المتروك وجوبه، وأما قول بعضهم: المتروك تأكد استحبابه، والباقي مطلق استحبابه، فلا يخفى ضعفه، بل تأكد استحبابه باقٍ ولا سيما مع استمرار الاهتمام به حتى في عام وفاته صلى الله عليه وسلم حيث يقول: "لئن عشت لأصومن التاسع والعاشر" (٣٥) ولترغيبه في صومه وأنه يكفر سنة (٣٦) وأي تأكيد أبلغ من هذا؟" (٣٧). وقد نقل الإمام ابن عبد البر الإجماع بأن صيام عاشوراء ليس بفرض وأنه مستحب (٣٨).

-
- ٣٣- أبو بكر أحمد بن محمد الأثرم، ناسخ الحديث ومنسوخه، تحقيق: عبد الله بن حمد المنصور، طبعة الرياض، ١٤٢٠هـ، ص ١٨٦-١٨٧، ابن شاهين، ناسخ الحديث، ص ٤١٥، الحازمي، الاعتبار، ١/٤٩٢، ٤٩٦، ابن الجوزي، الإعلام، ص ٣٢٩-٣٣١، الجعبري، الرسوخ، ص ٣٤٨.
- ٣٤- الجعبري، الرسوخ، ص ٣٤٨.
- ٣٥- الذي ورد في صحيح مسلم، ٧/٢٥٤ برقم: ٢٦٦٢ من حديث ابن عباس بلفظ: "لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع".
- ٣٦- وقد ثبت في حديث أبي قتادة الطويل في صحيح مسلم، ٧/٢٩٢ برقم: ٢٧٣٩ بلفظ: "سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم عاشوراء؟ فقال: "يكفر السنة الماضية".
- ٣٧- ابن حجر، فتح الباري، ٤/٣٠٧-٣١١.
- ٣٨- ابن عبد البر، التمهيد، ٧/٢٦٩، النووي، المنهاج، ٧/٢٥٠-٢٥٦.

فالراجح والله أعلم هو أن صيام عاشوراء كان واجبا في أول الإسلام، ثم نسخ وجوبه، وبقي استحبابه، كما دلت عليه الأحاديث المتعددة وإجماع الأمة عليه. والله أعلم. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

Abstract

Contention of Abrogation in *ḥadīth*: views of Some Authorities

The discussion about the issue of abrogation in both Qur'ān and the sunnah has occupied a vast space in the classical and contemporary discourse. A great deal of debate has been generated by this topic. In the sphere of *ḥadīth*, this issue forms an important and challenging part of the academic discussion. An acute awareness of this discussion has been found essential to resolve the differences between various reports. Many important works came to the fore in the past dealing with this intricate subject. However, most of these works did not come down to us. The extant works from the early period that are accessible now are the following:

1. Abū Bakr al-Athram (d.261AH) *Nāsikh al-Ḥadīth wa Mansūkhuh*;
2. Ibn Shahīn, (d. 385AH) *Nāsikh al-Ḥadīth wa Mansūkhuh*;
3. Imām al-Ḥazimī (d. 584AH) *Al-I'tibār fī al-Nāsikh wa al-Mansūkh fī al-Ḥadīth*;
4. Imām Ibn al-Jawzī (d.597AH), *I'lam al-'Ālim ba'da Rusukhihī bi Ḥaqā'iq Nāsikh al-Ḥadīth wa Mansūkhīh*; and:
5. Imām al-Ja'barī, (d. 732AH) *Rusūkh al-Aḥbār fī Mansūkh al-Akḥbār*.

This paper sheds light on the above works and attempts to resolve the differences between their authors about the possibility of abrogation in various *aḥadīth*.

جوانب مهمة من الصلات اللغوية والأدبية بين العربية والأردية

عمر فاروق

فذلكة تاريخية:

قبل أن ندخل إلى موضوعنا وتحدث عن أهم الصلات اللغوية والأدبية بين اللغتين - حريّ بنا أن نذكر شيئاً من علاقات تاريخية متبادلة بين العرب والهند. فمن المعلوم أن العرب كانت لهم قوافل تجارية تجري في طريق الهند منذ زمن قديم، كما أن المياه الهندية ألفت الملاحه العربية فيها. ثم إن سواحل "مالابار" و"مكّران/مكّران" وما جاورها من القرى والمدن، فأراضيها إنما استأنست بوطء أقدام العرب تجاراً فغزاة. ويشير التاريخ إلى وجود مستوطنات وجاليات، ثم حكومات عربية في هذه المنطقة، وما نشأ إثر ذلك من روابط المصاهرة بين الأمتين، كما أن أجناساً من الهنود لها تواجد تاريخي قديم في الجزيرة العربية كذلك^(١). عليه فإن التأثير والتأثر قد حصل من كلا الجانبين وإن كان الجانب العربي أقل تأثراً من

١- راجع للتفصيل:

- * عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، القاهرة، ١٩٨٩ م.
- * السيد معصوم بكر المعصومي السندي، تاريخ السند (المعروف بـ: تاريخ المعصومي)، مراجعة: عمر بن محمد داود فوته (داؤدپوت)، مومباي، ١٩٣٨ م.
- * إحسان حقي، تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية، بيروت، ١٩٧٨ م.
- * أحمد محمد السادتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية الباكستانية وحضارتهم، مكتبة الآداب، الجاهمير، مصر، ١٣٧٧ هـ/١٩٥٧ م، الجزء الأول.
- * عبد الله محمد جمال الدين، التاريخ والحضارة الإسلامية في الباكستان أو السند والبنجاب إلى آخر فترة الحكم العربي (١٥-٤١٦ هـ/٦٣٦-١٠٢٥ م)، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩١ م.
- * أبو المعالي أطهر المباركپوري الهندي، رجال السند والهند إلى القرن السابع الهجري، مومباي، ١٩٥٨ م.

الثاني. وما دامت هذه العلاقات متبادلة نقسمها إلى قسمين:

تأثر العرب بالهند:

كان العرب - على حد تعبير يوسف الهندي - قد أحبوا الهند لدرجة "أنهم اتخذوا منها اسماً لنسائهم"^(٢). وكذلك عرفوا "الهندية أو المهندة"، وهي السيوف التي كانت تُجلب إليهم من الهند. كما أن

* أبو المعالي أطهر المباركپوري الهندي، العرب والهند في عهد الرسالة، تعريب عن الأردية: عبد العزيز عزت عبد الجليل، القاهرة، ١٩٨٠م.

* أبو المعالي أطهر المباركپوري الهندي، العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين، القاهرة، ١٩٨٠م.

* محمود محمد عبد الله، اللغة العربية في باكستان: دراسة وتاريخ، وزارة التعليم الفيدرالية، إسلام آباد، ط١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

* السيد سليمان الندوي، الملاحه العربية، تعريب عن الأردية: مصباح الدين عبد الرحمن، منشور تباعاً في مجلة الثقافة الإسلامية الصادرة في حيدرآباد الدكن بالهند، أعداد: أكتوبر ١٩٤١م - أكتوبر ١٩٤٢م.

* عبد الله مبشر الطرازي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد الهند والبنجاب في عهد العرب، عالم المعرفة، جدة، ١٩٨٣م، المجلد الأول.

* أحمد شلبي، موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٨٣م، المجلد الثامن.

* أبو المعالي أطهر المباركپوري الهندي، الهند في عهد العباسيين، القاهرة، ١٩٨٠م.

* أحمد معوض، تاريخ الإسلام في شبه القارة الهندية. انظر: أحمد معوض، باكستان المعاصرة، دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٧٦م، ص ٣٨، (بالهامش).

* محمد اسحاق بھٹی، برصغیر میں اسلام کے اولین نقوش، ادارة ثقافت اسلامیہ، لاہور، ط٢، ١٩٩٤م.

* ڈاکٹر تاراچند، تمدن ہند پر اسلامی اثرات، ترجمہ: محمد مسعود احمد، مجلس ترقی ادب، لاہور، ط١، ١٩٦٤م. (الأصل الإنجليزى مذكور أدناه).

* سيد سليمان ندوي، عربوں کی جہازرانی، اسلامک ریسرچ ایسوسی ایشن، ممبای، ط٢ (مزید و منقحہ)، بدون سنة. (ترجمته العربية مذكورة أعلاه).

* سيد سليمان ندوي، عرب و ہند کے تعلقات، إله آباد، الهند، ١٩٣٠م.

* مؤلف مجهول، فتح نامہ سندھ (ويعرف بـ: فتح نامہ أيضاً)، مفقود الأصل العربي، نقله إلى الفارسية: علي بن حامد بن

أبي بكر الكوفي، قدم له ونشره نبي بخش البلوصي (نبي بخش بلوچ) في إسلام آباد، ١٩٨٣م.

* قاضی اطہر مبارکپوری، ہندوستان میں عربوں کی حکومتیں، پروگریسو بکس، لاہور، ١٩٨٩م.

* George Fernando Hourani, *Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Medieval Times*, Princeton University Press, 1951.

* K. S. Lal, *Early Muslims in India*, New Delhi, 1984.

* Dr. Tara Chand, *Influence of Islam on Indian Culture*, The Indian Press, Allahabad, 1946.

* Sir. H. M. Elliot, *The History of India as Told by its Own Historians*, Ed.: John Dawson, Calcutta, 1867.

٢- محمد يوسف الهندي، "بدء العلاقات العلمية بين العرب والهند"، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، القاهرة،

الرماح الحَطِيَّة التي اشتهرت بين العرب فكانت أيضاً تُنقل منها إلى "الحَطَّ"، وهو موضع على ساحل البحرين، فنُسبت إليه. وكذا هو الأمر فيما يتعلق بـ: "مسك دَارِين"، أي المسك الهندي الذي جُلب إلى "دارين"، إحدى موانئ البحرين^(٣). ثم إن "عود المَنْدَل" و"فوه الهال" (أو الهَيْل، أي حَبَّهان) فإنها كانا في الأصل من أسماء الأمكنة الواقعة على شواطئ الهند التي سُمِّيت الأشياء المستوردة منها بمسمياتها^(٤). وأما البضائع التجارية الأخرى التي كانوا يستوردونها من الهند فتُعرض في أسواق الأَبْلَّة وظَفَّار وَعَدَن وعَكَّاظ ونجران وغيرها من بلاد العرب، فمنها: الجوز الهندي، والصَنْدَل، والحَيُّزْران، والقماش من أنواع مختلفة، ثم الأَرزُّ والقمح والبَهَّارات أو التوابل نحو: الزنجبيل والقَرْنُفُل والفلفل^(٥).

وقد أمكن العرب القُدَامَى - من خلال هذا الاتصال التجاري السحيق في الزمن - التعرف إلى بعض اللغات الهندية المنطوق بها وقتئذ في مختلف أنحاء البلاد، ووجدت بعض المفردات اللغوية الهندية طريقها إلى الشعر الجاهلي، ثم إلى القرآن الكريم أيضاً كألفاظ حية شائعة. من هذه الكلمات الدخيلة في العربية: الفلفل والقَرْنُفُل والمسك والزنجبيل والكافور^(٦) والفيقل^(٧)^(٨).

٣- طه حسين وآخرون، التوجيه الأدبي، دار المعارف، القاهرة، بدون سنة، ص ٢١٠.

٤- محمد يوسف الهندي، "بدء العلاقات العلمية بين العرب والهند"، ص ٩٨.

٥- محمد اسحاق بھٹی، برصغیر میں اسلام کے اولین نقوش، ص ٢٩.

٦- خالف بعض الباحثين في كون كلمة "الكافور" هندية الأصل، وإنما ذهب بعد دراسة فاحصة إلى أنها من أصل سامي واردة في القرآن بمعنى الجناء أو عطر الجناء. انظر: محمد اقتدار حسين الفاروقي، "أصل كلمة الكافور وحقيقتها"، تعريب: محمد صلاح الدين العمري، مجلة المجمع العلمي الهندي، ربيع الأول ١٤١٢هـ/أكتوبر ١٩٩١م، ج ١٤، ع ١-٢، ص ١٧٤-١٨٥. (وهو أصلاً جزء من كتاب ألفه الدكتور الفاروقي بالإنجليزية بعنوان: *Plans of the Quran*).

٧- أما كلمة "الفيقل" فليست فارسية كما هو معروف، وإنما هي من أصل سنسكريتي انتقلت منه إلى كل من الفارسية والأشورية الفارسية. انظر: محمد يوسف الهندي، علاقة العرب التجارية بالهند، ص ٤، نقلاً عن: عبدالمجيد ندوي، عربي زبان وادبيات میں ہندی اثرات، مجلة معارف الأردنية الصادرة في الهند، محرم ١٣٨٩هـ/أبريل ١٩٩٦م، ج ١٠٣، ع ٤، ص ٢١٤.

٨- سيد سليمان ندوي، عرب وہند کے تعلقات، ص ٧٢؛ سيد سليمان ندوي، عربوں کی جہازدانی، ص ١٢؛ جميل أحمد، حركة التأليف باللغة العربية في الإقليم الشمالي الهندي في القرنين الثامن والتاسع عشر الميلادي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٧م، ص ٣٥؛ وانظر لذلك أيضاً: عبدالمجيد ندوي، عربي زبان وادبيات میں ہندی اثرات، مجلة معارف، محرم - صفر ١٣٨٩هـ/أبريل - مايو ١٩٩٦م، ج ١٠٣، العددين: ٤-٥، ص ٢٩٩-٣١٤ و ٣٩٠-٣٩٨ على الترتيب.

وعلاوةً على هذه التجارة والاستيراد فإن كثيراً من العرب مكثوا بالهند واستوطنوها جالياتٍ، خاصةً بعد بزوغ شمس الإسلام لما فتح المسلمون بعض مناطق الهند في أوائل خلافة الفاروق عمر رضي الله عنه سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م، مع كونه شديد الحذر من "حمل الدود على العود" كما كتب إلى والي البحرين عثمان بن أبي العاص الثقفي (٥١هـ/ ٦٧١م) الذي قام بإعداد ثلاث حملات بحرية ليطلق الهند من ثلاثة جوانب. فأرسل أخاه الحكم لمهمة شن الغارة البحرية أولاً على "ثانه/ تمانه"، ثم على "بروص/ بھروچ" - مدينتين بالقرب من "مومباي/ ممبئی" و"أحمد آباد" حالياً بالهند. كما أرسل أخاه الثاني المغيرة إلى ميناء "الديبل أو دايبول/ ديبل" - وهي مدينة "بانبور/ بھنبور" الآن في باكستان^(٩). ثم توالى الفتوحات حتى جاء محمد بن القاسم فهجم هجمته القاضية على السند والهند، فانتظمت حكومتها تحت قيادته، وكثرت اتصالات المسلمين العرب بالهند، وازدادت عملية الأخذ والعطاء في مجال اللغة كذلك.

فقد أشار الباحثون إلى كثير من الكلمات المحلية التي دخلت لغة الفاتحين بعد ذلك، ولكن يجب التنويه في هذا المقام بأن أحد علماء الأردية الدكتور سيد عبد الله (ف: ١٩٨٦م) قام بإجراء بحثٍ - حول قضية التنقيب عن النواة الأولى للغة الأردية - حاول فيه بنجاح استكشاف الكلمات الهندية الأصل من خلال تواليف عربية أُلِّفت في أحوال الهند وأهلها وما لديهم من فنون مثل كتب التاريخ والجغرافيا والرحلات. وذلك لكي يتبين منها الموارد المحلية الأولى التي تَهَلَّت منها الأردية في أول نشأتها، لأن النماذج الكتابية للغات المحلية الإقليمية بالهند لا ترجع إلى ما وراء القرن الخامس أو الرابع عشر الميلادي على الأكثر^(١٠).

تأثر الجانب الهندي:

أما الحفاوة المتبادرة من أهل الهند تجاه العرب والجزيرة العربية من عهد ما قبل الإسلام فلها من شواهد ما سنذكر بعضها فيما يلي: فأول شيء يقابلنا في هذا الصدد هو وجود بعض الأقوام من الهنود في شبه الجزيرة العربية، منها: الزُّطُّ والمَيْد والسيابجة والبياسرة والأحامرة والأساور^(١١). وهؤلاء الناس

٩- أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: إم. جَي. دي جورج، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٨م، ص ٤٣١-٤٣٢؛ عبد الله محمد جمال الدين، التاريخ والحضارة الإسلامية في باكستان أو السند والبنجاب إلى آخر فترة الحكم العربي، ص ١٧. وأما ما قاله الدكتور عبد الله جمال الدين في المرجع الأخير من أن عثمان الثقفي تولى بنفسه قيادة الحملة الأولى، فهو ما لا تؤيده المصادر فيما بحثنا.

١٠- انظر: ذاكر سيد عبد الله، مباحث، مجلس ترقى ادب، لاهور، ط ١، ١٩٦٥م، ص ٣-٤١.

١١- محمد اسحاق بھٹی، برصغیر میں اسلام کے اولین نقوش، ص ١٦-٢٧.

ارتحلوا إلى بلاد العرب عن طريق اليمن وفارس لأسباب اقتصادية تجارية وأخرى سياسية، ولكن هناك عاملاً آخر وراء ذلك لا يُقَلُّ - فيما نعتقد - أهمية وتأثيراً من العوامل الأخرى: ألا وهو ورود بعض النبوءات عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم في كتب الهنود المقدسة حيث يطالعنا في "بويش فران/ بھویش پران" و"أثرويد/ اتھروید" وصف لموكب البعثة النبوية الشريفة يُشبه في مجمله ما جاء في الكتاب المقدس من إخبار عن رسول اسمه أحمد صلى الله عليه وسلم (١٢)(١٣).

فمن ذلك ما يدل على لطفة أهل الهند للإسلام أن حاكماً هندوسياً لإحدى الإمارات الهندية أرسل "الزنجبيل" هديةً للنبي عليه السلام (١٤)، كما أن التاريخ يُطلِّعنا على أن أهل جزيرة "سيلان أو سرنديب/ سرانديپ" (سري لانكا حالياً) أرسلوا رجلاً فهِمياً منهم وأمره أن يسير إليه (أي الرسول)، فيعرف أمره (١٥)، ووصل الرجل بعد رحلة شاقّة إلى المدينة في عهد أمير المؤمنين عمَرَ بْنَ الخطَّاب رضي الله عنه، فسأله عن أمر النبي، صلى الله عليه وسلم، فشرح له وبيّن (١٦).

وإلى جانب ذلك نعلم أن اللغة العربية كانت معروفة - كذلك - لدى نخبة من رجال الهند منذ عهد قديم. ومن شواهد ما نقله السيد سليمان الندوي (١٩٥٣م) عن البانديت "سوامي ديانندي جي" - أحد علماء الهندوس - أن "دروجي" كشف لـ: "بانديو/ بانڈو" عن مؤامرة أعدائهم "كورو" باللغة العربية، وأجابه "بدشتر/ بدھشتر" بالعربية كذلك (١٧). ويعني ذلك أنهم كانوا يستخدمونها كالشِّفرة أو اللغة السرية فيما بينهم أثناء حربٍ تاريخية قديمة اندلعت بين عشيرتي "بانديو" و"كورو" معروفة بـ: "المهَّابھاراتا/ مہا بھارت" (١٨).

-
- ١٢ - على أكبر، اسرائیل اور قرآنی پیش گوئیاں، ترجمة: محمد أفضل مياں، شخ غلام علی اینڈ سنز، لاهور، بدون سنة، ص ١٥-١٦.
- ١٣ - أدرجت هذه الإحالة وأمثالها تمثيلاً مع النفسية الإنسانية العامة التي قد لا يصدق عليها الواقع، ولكن إنها تُذكر هذه الأشياء في مثل هذا الموطن لمكانتها الثقافية المتأصلة في اللاشعور الجمعي العالمي الذي انبت عليه الميثولوجيا والتاريخ والديانة في نشأتها البدائية.
- ١٤ - أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ج ٤، ص ١٣٥.
- ١٥ - بُزْرُك بن شھريار الناخذاه الرامهرْمُزي، عجائب الهند ويره ويحره وجزائره، تحقيق: ب. أ. فان ديرلث، (مع ترجمة فرنسية من: مارسيل ديفك)، إي. جي. بريل، ١٨٨٣-١٨٨٦م، ص ١٥٦.
- ١٦ - المصدر السابق، الصفحة نفسها.
- ١٧ - سيد سليمان ندوي، عرب وھند کے تعلقات، ص ١١.
- ١٨ - وقد وردت تفاصيل وقائع هذه الحرب القديمة الكبرى في كتاب يحمل العنوان نفسه، أي "المهَّابھاراتا"، ويُعتبر "أكبر ملحمة شعرية في العالم، إذ يبلغ عدد أبياتها مائة ألف بيت شعر، أي ضعف حجم الشاهنامه (لل فردوسي)، وثلاثة أضعاف حجم ملحمتي "الإلياذة" و"الأوديسسة" لهُوميروس في مجموعها، وهي تُشبه هذه الثلاثة في سردها الأسطوري).. ويرجع تاريخها (تاريخ المهَّابھاراتا) إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة أو أكثر". انظر: محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ج ٢، ص ٨٣١.

هذا، وبعد أن مضى على ذلك حين من الدهر، وقد أخذ العرب المسلمون في غزو الهند وقامت بينهم وبين أهلها أنواع من العلاقات - عند ذلك نجد كثيراً من أهالي الهند يعرفون العربية و يألفونها بحكم التفاعل الزائد الحاصل مع أبنائها، وكان بعض الأمراء الهندوس يُلمُّون بها أيضاً حتى وُجِدَ فيهم من يستظهر الشعر العربي ويستشهد ببعض الأبيات من شعر حسَّان بن ثابت لما يأتيه عبد الرحمن بن الأشعث (٨٥هـ/ ٧٠٤م) ملتجئاً بعد هزيمة لقيها على أيدي الجيش الذي أرسله الحجاج لمعاقبته كخارج على الأمويين (١٩).

ثم إنه قد أتى على بعض مناطق الهند فترة بعد الفتح الإسلامي أصبحت فيها العربية - جنباً لجنبٍ مع اللغات المحلية - لغة التحدث لأهل هذه المناطق. فذكر ابن خرداذبه (ف: حوالي ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) أن "لسان أهل المنصورة والمثلثان ونواحيهما العربية والسندية" (٢٠). ومع أن الدول التي أقامها العرب في الهند دامت أكثر من ثلاثة قرون، فإنه لم يبق من آثارها شيء كثير لبعدها المسافة الزمنية التي تفصلنا عنها، كما أن الحكومات المسلمة الأخرى في شبه القارة الهندية تركت لنا من آثارها ما استر وراءه كثير من الشواهد التي كانت ستدلنا على أول عهد المسلمين العرب ولغتهم بالهند (٢١).

ثم حلت الفارسية في العصور اللاحقة محل العربية كلغة رسمية في الدوائر الحكومية بالهند، وإن

١٩ - قاضى الطهر مهابادپورى، هندوستان میں عربوں کی حکومتیں، ص ٣١٥.

٢٠ - عبيد الله بن عبد الله بن أحمد ابن خرداذبه، كتاب المسالك والممالك، تحقيق: إم. جى. دي جوجه، مطبعة بريل، ليدن ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م، ص ١١٧.

٢١ - اكتُشف في مدينة "بانبور/ بجنبور" التي أسموها قديماً "دايبول/ دبيل"، والتي أنشأها المسلمون على أنقاض المدينة السابقة عليها لغير المسلمين، وكانت هي الساحة التي انتصر فيها العرب أول انتصار لهم في السند، اكتُشف في هذه المدينة مسجد شابه المساجد المعاصرة له في كونها بدون المحاريب مثل مسجد الكوفة ومسجد واسط، وبه لوحتان عليهما كتابات عربية تعود إلى سنة ١٠٩هـ/ ٢٩٤م. انظر: محمد رفيق مغل، المدن الإسلامية الباكورة في السند - أمثلة من التجارة العالمية، ترجمة وتحرير: معتصم يوسف مصطفى، مجلة الدراسات الإسلامية، مجمع البحوث الإسلامية، إسلام آباد، ذوالحجة - صفر ١٤٢٠هـ/ أبريل - يونيو، ١٩٩٩م، ج ٣٤، ع ٢، ص ١٤٢ و ١٥٩ - ١٦١؛ قاضى الطهر مهابادپورى، هندوستان میں عربوں کی حکومتیں، ص ٧٥.

كذلك عُثِر في الحفريات الأخيرة التي أُجريت في مواقع المنصورة على عدة مقابض أبواب من البرونز مكتوب عليها بخطٌ كوفيٌّ زَهْرِيٌّ الشكل بعض من آيات القرآن واسم صاحب هذه المقابض الأمير عبد الله بن عمر. انظر: محمد رفيق مغل، المدن الإسلامية الباكورة في السند - أمثلة من التجارة العالمية، مجلة الدراسات الإسلامية، ج ٣٤، ع ٢، ص ١٤٥ و ١٦٣ - ١٦٥.

كانت العربية متداولة بين العلماء لكونها لغة دينية، فبقيت لغة التأليف دون التكلم بجانب الفارسية التي غشّت المنطقة كلّها من حيث كونها لغة الحاكمين. وأما هؤلاء الحكام فقد وردوا الهند من بلاد آسيا الوسطى - وهم يقودون موكب الفتح التركي - حاملين معهم عناصر فارسية استطاعت فرض لغتها عليهم (٢٢). وذلك في غضون سنة ٤١٦هـ (الموافق ١٠٢٥م). وهذا "هو التاريخ الذي شهد ميلاد الدولة الغزنوية... التي تركت اللغة العربية، واتخذت الفارسية لغة لها، وبثت مظاهر الحياة والحضارة الفارسية" (٢٣).

كيفية نشأة الأردية:

وأما فيما يتعلق باللغة الأردية - التي سوف نتناول ما بينها وبين العربية من صلات في نوع من التفصيل - فعند استعراض تاريخ هذه اللغة من أول أمرها نجدها قد نشأت هندية الأصل في بنيتها اللغوية والنحوية الأساسية، ولكنه لم يتيسر لها النضج والاكتمال، ثم الرقي والتقدم، إلا تحت رعاية قوم لا غنى لهم عن العربية كلغة دينهم ولا عن الفارسية كلغة حضارتهم. فهؤلاء هم المسلمون الذين نشأت اللغة الأردية في أحضانهم وترعرعت في كنف رعايتهم، إذ رفعوا من منزلتها بعد أن كانت لغة وضيعة القدر في بداية الأمر، فإن الناطقين بها كانوا من المستضعفين الأذلاء الذين لم تكن لهم أية كرامة في المجتمع الهندوسي الذي كَبَسَتْه أقلية قليلة من البراهمة في قبضتها كالأخطبوط. فعاش الشعب عيشة العبيد، بل في حال أسوأ منهم. فتقدم المسلمون إليهم وانتشلوهم مما كانوا فيه من حضيض الذلة والمسكنة، كما أكدوا أنهم ليسوا بأنجاس على ما زعم البراهمة الذين كانوا قد صوّروا لهم من خلال ديانتهم الهندوسية تلك الصورة البغيضة التي لا تليق بالإنسانية البتة، ولا يمكن لأي إنسان أن يختارها لنفسه عوضاً؛ والتي كان قد بُني على أساسها التقسيم النوعي لمواطني شبه القارة الهندية إلى أربعة أجناس آدمية. فقيّص فيه هؤلاء العامة أن يعملوا مُجَبَّرِينَ، ومن جيل إلى جيل، كخَدَمٍ لمن فوقهم في هذا النظام الاجتماعي (٢٤).

في هذه الظروف بسط المسلمون إليهم يد العون والشفقة، وبلغوهم رسالة الإسلام السَّمْحَةَ،

٢٢- عبد الوهاب عزام بك، اللغة الفارسية في الهند، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ج ٢، ع ٩، ديسمبر

١٩٤٧م، ص ٤.

٢٣- عبد الله محمد جمال الدين، التاريخ والحضارة الإسلامية في باكستان أو السند والبنجاب إلى آخر فترة الحكم

العربي، ص ٣.

٢٤- انظر لتفصيل هذه الأمور: محمد اسحاق بھٹی، برصغیر میں اسلام کے اولین نقوش؛ شیخ محمد اکرام، آپ کوثر، ادارہ ثقافت اسلامیہ،

لاهور، ١٩٩٦م.

كما كسبوا لهم حقوق الدرجة الأولى من المواطنين أيضاً^(٢٥). ومن أجل ذلك اتخذوا لغة هؤلاء الجماهير - وهي الأردية في شكلها البدائي، وكانت تُسمّى "الهندوية" - اتخذوها لغة اتصال وتواصل، ونهضوا بها إلى درجةٍ حيث صارت لغة وحيدة من بين اللغات الهندية الكثيرة لها قبول واسع وشعبية ساحقة في معظم أرجاء البلاد^(٢٦). فخلفت الفارسية في مجال الأدب والحضارة، كما اتخذت نماذجها الأدبية واللغوية من الفارسية كذلك التي كانت متأثرة - وهي الأولى في هذا الصدد - بالعربية إلى حدٍّ بعيد. وهذا ما سنلقي عليه بعض الضوء فيما يأتي إن شاء الله. ففرض القوم الشعر بالأردية على منوال الشعر الفارسي، وألّفوا في القواعد على نمط القواعد النحوية الفارسية، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالفنون الأدبية الأخرى. وذلك بالإضافة إلى استمداها ما يربو على خمسين في المائة (٥٠٪) من الألفاظ العربية والفارسية فيما كانوا يكتبون^(٢٧). فهذه الأسباب كلها أدّت إلى عزو الأردية للمسلمين كواضعي هذه اللغة الجديدة، وإن كان الهندوس قد أسهموا في تطويرها منذ أول نشأتها^(٢٨)، ولكنهم تثقفوا أولاً - وهم الآخرون - ثقافة عربية وفارسية^(٢٩).

- ٢٥ - ڈاکٹر تارا چند، *تمن ہند پر اسلامی اثرات*، ص ٦٣.
- ٢٦ - شیخ محمد اکرام، *آب کوثر*، ص ٤٦٨؛ ڈاکٹر شوکت سبزواری، *داستان زبان اردو*، انجمن ترقی اردو پاکستان، کراچی، ط ٢، ١٩٨٧م، ص ٤٢.
- ٢٧ - انظر للتفصیل: سمیر عبد الحمید ابراہیم، *الألفاظ العربية في اللغة الأردية*، المكتبة العلمية، لاهور، ١٩٩١م، إنعام الحق غازی، *الاقتراض اللغوي من العربية إلى الأردية*، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، ١٩٨٧م؛ إكرام الحق یاسین، *الكلمات العربية في أدب دبتي نذیر أحمد*، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، ١٩٩١م.
- ٢٨ - انظر لذلك: قاضی ظہور الحسن ناظم سیہاروی، *اردو زبان اور ہندو*، کتاب منزل، لاهور، بدون سنة؛ عبدالسلام خورشید، *اردو کے ہندو شعراء کی دفتر تحرک* .. رفاقت پنجاب، لاهور، ١٩٣٦ء؛ ڈاکٹر وفاراشدی، *اردو کی ترقی میں بنگال کے ہندوؤں کا کردار*، مجلہ *خدا بخش لائبریری جرنل*، الصادرة في بطنه (پٹنہ)، الهند، ع ١١٦، يونيو ١٩٩٩م، ص ٣٧-٦٨. *داستان زبان اردو*، انجمن ترقی اردو پاکستان، کراچی، ط ٢، ١٩٨٧م، ص ٤٢.
- ٢٩ - ويدل على ذلك ما نجد في دواوين الشعراء الهندوس من الابتداء بالحمد لله تعالى، ثم ال: نعت وهو مدح الرسول عليه السلام. وهذه كانت - ولا تزال - طريقة متبعة عند الشعراء المسلمين في شبه القارة الهندية في إخراج دواوينهم. وقد جمعت السيدة "فرانماجد" بعض ما أنتجته قرائح الشعراء الهنادكة في هذا الصدد من مدائح نبوية في كُتَيْب بعنوان: *نعت رسول بزبان غير مسلمان*، أي مدح الرسول على لسان غير المسلمين. منشور من قبل *ماهنامه انتظار پبلشرز*، إسلام آباد، ١٩٩٧م. =

التأثير العربي في اللغة والأدب الأردنيين:

وهنا يحسن بنا الإشارة إلى أن العلماء المسلمين الأوائل في شبه القارة الهندية قد زودوا الأردنية - لما كانت قد خرجت من طور نشأتها البدائية - بالمفردات والتعبيرات العربية والفارسية بشكل أن انطبعت اللغة الأردنية بطابع خاص يتذوقه الأدباء حتى الآن، إلى أن استقلت بنفسها واستوى عودها كلغة متميزة لها كينونة ثابتة وشخصية مستقلة، فعادت إلى الأخذ من لغات أخرى كثيرة^(٣٠). وهاك نموذجاً لما يهمننا فيما نحن بصدد الحديث عنه من تعبيرات لغوية عربية استخدموها في الأردنية، فأدّت إلى دورها في تطويرها، فمنها: (٣١)

= ومن الأعلام الهندوس الذين ألبوا بالعربية وآدابها: بھارت چندرائے گناکار (ف: ١٧٦٠م)، ڈاکٹر وفاراشدی، ارووکی ترقی میں بنگال کے ہندوؤں کا کردار، مجلہ خدا بخش لائبریری جرنل، ع ١١٦، ص ٤٨؛ مہاراجہ بہادر جئے نرائن گھوشال (ف: ١٨٢١م) المرجع السابق، ص ٤٨؛ جئے گوپال ترکانکا (ف: ١٨٢٣م)، المرجع السابق، ص ٥١؛ راجہ رام موہن رائے (ف: ١٨٣٤م) المرجع السابق، ص ٤٥ و ٤٧؛ مٹھی گویند لال (من رجال القرن التاسع عشر)، جمیل أحمد، حركة التألیف باللغة العربية في الإقليم الشمالي الهندي في القرنين الثامن والتاسع عشر الميلادي، ص ٢٢٤؛ مٹھی دہی پرشاد دایوئی (من رجال القرن التاسع عشر)، مٹھی دہی پرشاد، معیار البلاغت، مطبع ہائی نول کٹور، لکھنؤ، ط ٣، ١٣٢٣ھ/ ١٩٠٦م، ص ٢؛ پنڈت برج موہن دتاتریہ کئی (ف: ١٩٥٤م)، پنڈت برج موہن دتاتریہ کئی، منشورات، دیال پرنٹنگ پریس، دہلی، ط ٣، ١٩٤٥م، ص ٣٤، ٥١، ٦٠، ٨٩؛ مالک رام (ف: ١٩٩٣م)، ابوالکلام آزاد، غبار خاطر، تعلیق الحواشی: مالک رام، مکتبہ رشیدیہ، لاہور، ١٩٩٩م، ص ٣٦٥-٥١٦؛ پروفیسر ہیرالال چوہڑا (من رجال القرن العشرين)، ڈاکٹر وفاراشدی، ارووکی ترقی میں بنگال کے ہندوؤں کا کردار، مجلہ خدا بخش لائبریری جرنل، ع ١١٦، ص ٦٢؛ وانظر للآخرین من علماء العربية الهندوس: الأستاذ رام لال النابوي (نابھوی)، اہتمام الهندوس باللغة العربية، ترجمة عربية: عرفات ظفر، مجلہ ثقافتہ ہند العربیة الصادرة في دہلی الجديدة، ٢٠٠٩م، ج ٦٠، ع ٤، ص ٢٦-٣٥. وانظر لتمہر الهندوس في اللغة والأدب الفارسیة: ڈاکٹر سید عبداللہ، ادبیات فارسی میں ہندوؤں کا حصہ، مجلس ترقی ادب، لاہور، ١٩٦٧م.

٣٠- وفي هذا الصدد أمدها الاستعمار الإنجليزي بنسج لغوي وتعبيري جديد، مع ذلك فإنها لم تنصرف عن نزعتها العربية والفارسية، إلا أنها رحبت لهذا الجديد صدرها أيضاً. أما الآن فقد تغيرت الأوضاع كثيراً، ولم يبق للقديم كبير أثر على الحديث المتجدد المتماشي مع التطور الزمني، خاصة في الأوساط الصحفية والإذاعية. فاللغة الأردنية الإعلامية - كمعظم اللغات الشرقية الأخرى - قد انحازت إلى التيار الدؤلي الذي هو عبارة عن سيادة اللغة الإنجليزية في أكثر الأحيان.

٣١- مرتضى حسین لکھنوی - سید قائم رضا نیم امرہوی - محمد باقر آغا، نیم اللغات (معجم أردی - أردی)، شیخ غلام علی اینڈ سنز، لاہور، ١٩٨٩م؛ شان الحق حق، فرہنگ تلمظ (معجم أردی - أردی)، مقتدرہ قومی زبان، اسلام آباد، ٢٠٠٢م، تحت المواد المذكورة.

ماشاء الله: ويُستعمل للتقدير والإعجاب وللثناء على أحد، كما قد يُستخدم بلاغياً في موطن الطعن والتعريض.

لا حول ولا قوة: ويُستعمل لإظهار البراءة والكراهية والاستنكار.

لا يموت ولا يزال: الذي ليس له فناء، أي سبحانه جل وعلا.

ما بعد: فيما بعد؛ بعد ذلك.

ما به الامتياز: والفارق أو الميزة الخاصة بشيء.

ما به النزاع: ومبعث الخصومة.

الاقرب كالعقارب: ويُستعمل في موضع تلقي المكروه من الأقرباء استياءً منهم.

ما حضر: والطعام الموجود.

ما في الضمير: وما في نفس أحد.

ما لا يُطاق: وما لا يقبل به.

ما قلَّ ودلَّ: وما قلَّت ألفاظه وكثر مغزاه.

نعوذ بالله؛ عياداً بالله: ويُستعمل في موضع الكراهية والنفور من شيء، كما يُستخدم لطلب مغفرة الله عند مسّ بكرامة شعيرة أو شخصية دينية محترمة بسوء.

العطش: واستعماله للتعبير عن الشعور بشدة العطش.

فاعتبروايأولى الأَبصار: آية قرآنية [الحشر: ٥] تُستعمل في موطن التحريض على الاتعاظ بشيء مآ.

فاتحهم يذهبنا: (أي قراءة الفاتحة) وذلك على الميت، وقد يُستعمل في محل اليأس والقنوط.

في أمان الله: واستعماله للتوديع.

الإنتظار أشدُّ من الموت: ومعاناة الانتظار أكبر من شدة الاحتضار.

في النار والستر هوجانا: (أي الدخول في جهنم) ويُستعمل في العدو دعاءً عليه أو بياناً لحاله؛ وقد يُعبّر بذلك عن التورط في المشقة والعناء.

ماخوذ هونا/ كرنا: (أي الأخذ) وهو القبض على أحد والمحاسبة له.

كذلك "النادر كالمعدوم" و"لا تُعد ولا تُحصى" و"المرء يقين على نفسه" و"المعنى في بطن الشاعر" و"مضى ما مضى" و"الميت بالله" و"أدام الله إقباله" و"قدِّس سره" ... إلخ.

فهناك الكثير من هذه التعبيرات العربية التي استعملها الناطقون بالأردنية، ولا زالوا يستخدمون جزءاً كبيراً منها نطقاً وكتابة. وقد جمعها أصحاب المعاجم حسب المواد المتوفرة لدى كل واحد منهم أو حسب نوعها^(٣٢). ويجب أن يُوضع في الاعتبار أن عدداً متوافراً من تعابير القرآن وحديث الرسول قد غدّت الأردية في هذا الصدد وأثّرت ثروتها التعبيرية والأسلوبية على نطاق واسع كما رأينا وكما سنرى^(٣٣).

ثم هناك طائفة أخرى من هذه التعبيرات والمصطلحات العربية التي حصل فيها التداخل اللغوي فتغيّر مدلولها بالأردنية، أو تأزّد شكلها بحسب النطق بها أو استعمالها عند الأردوين، نحو^(٣٤):

صُمُّ بَكْمٌ: أي الذي لم يَنْبَسْ ببنت شفة أو لم يُجِرْ جواباً كأنَّ على رأسه الطيرَ، مأخوذاً من قوله تعالى:

﴿صُمُّ بَكْمٌ عَمَىٰ فَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (سورة البقرة، الآية: ٨١).

اللَّذِي نَهَّ اللَّذِي: أي المتردد بين هذا وذاك فيقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى، وهو كذلك مستمدّ في معناه من قوله تعالى: ﴿لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ (سورة النساء، الآية: ١٤٣).

وهناك طائفة ثالثة من الاصطلاحات والتعبيرات الدينية والفنية القديمة التي استقرّت على معانيها المحترمة ولم تتغير، وقد رُسِمَتْ بعضها على حسب الإملاء العربي القديم كذلك، نحو: "إقامة الصلوة" و"إيتاء الزكوة" و" تلاوة القرآن" و"رواية الحديث" و"مخرج الأصوات" و"مراقبة الصوفي" و"القياس مع الفارق" ... إلخ.

٣٢- ويمكن أن يُنظر في هذا الصدد المعاجم التي أُلِّفت في الأمثال نحو: وارث سربندي، جامع الأمثال، مراجعة: شان الحق حقي، مقتدره قومي زبان، إسلام آباد، ١٩٨٦م؛ شاه حسين حقيقت، خزينة الأمثال، مقتدره قومي زبان، إسلام آباد، ١٩٨٦م؛ وبالأخص: مقبول الہی، اردو میں مستعمل عربی و فارسی ضرب الأمثال، مقتدره قومي زبان، إسلام آباد، ١٩٩٦م. وهناك معجم آخر بعنوان: فرہنگ عامره أدرج فيه واضعه "محمد عبد اللہ خان خویبگی" حوالي أربعين ألفاً من الألفاظ العربية والفارسية والتركية المستعملة في اللغة الأردية بالدلالة على أصل كل كلمة، وقد صدر في طبعته الأخيرة سنة ١٩٨٩م عن المجمع اللغوي الأردني (مقتدره قومي زبان) نفسه بإسلام آباد.

٣٣- انظر لذلك خاصة: ڈاکٹر غلام مصطفیٰ خان، اردو میں قرآن اور حدیث کے محاورات، ادارہ تحقیقات اسلامی، بین الاقوامی اسلامی یونیورسٹی، إسلام آباد، ١٤٠٠ھ/ ١٩٨٠م.

٣٤- شان الحق حقي، فرہنگ تلفظ، تحت المواد المذكورة.

ولسوف يظهر الأمر بوضوح فيما يتعلق بتأثير العربية في الأردنية من حيث التعبير اللغوي وما سنذكر عنه من أجناس أدبية وما يتصل بها من فنون - إذا عرفنا أن الشعراء والكتّاب باللغة الأردنية إنما كانوا على معرفة تامّة بالعربية والفارسية حتى العهد المتأخر ما قبل المُحدّثين. أما المحدثون فمعظمهم يعرفون الفارسية التي أدّت في كثير من الأحيان دور الوسيط بين اللغتين. (وسياتي الكلام عليه بعد قليل). وأما ما قيل مثلاً عن بعض الشعراء المتأخرين - وهو الميرزا أسد الله خان غالب / مرزا اسدالله خان غالب (ف: ١٨٦٩م) - بأنه لم يكن ملماً بالعربية، فسرّ ذلك القول أنه لم يُكجّل دراسته في اللغة العربية وآدابها حتى التخرج، وإن كان قد درس جيداً على الأستاذ ما كفى مثل ذلك الرجل من أساسيات هذه اللغة ليواصل القراءة بنفسه في المؤلفات العربية (٣٥).

إذن فلا غرو إذا اقتبسوا في كتاباتهم من النصوص العربية، أو لمَّحوا إلى شخصيات الأدب العربي وظواهره المختلفة. فلنقرّ مثلاً هذا البيت من تمهيد افتخاري في قصيدة لـ: "أمير الله تسليم الكاتب/ منشي أمير الله تسليم (ف: ١٣٢٩هـ/ ١٩١٨م) مدح بها الأمير واجد علي شاه/ تواب واجد علي شاه (ف: ١٨٨٧م)، حاكم إمارة "أوذ/ أوده" وقتئذ: (٣٦) [من الرمل]

بکہ ہوں فیض نسیم دہلوی سے کامیاب گنگ ہے آگے مرے سحبان کی زبان
 "إني - بما أفاض به عليّ الشيخ نسيم الدهلوي: أستاذ الشاعر من علمه وفضله - قد
 وُفِّتُ إلى أن (أبلغ من الفصاحة والبلاغة حدّاً حيث) أرى (خطيباً مصقّعاً مثل)
 سحبان وائل (٣٧) قد وقف ساكتاً عند خطابتي منعقد اللسان".

ومن الشعراء الأردويين المعاصرين عبد العزيز خالد (ف: ٢٠١٠م) قرض القصيدة في مدح

٣٥- حافظ جلال الدين احمد جعفرى (اختيار وتقديم)، تاريخ قصاصات اردو، ادارة شركت مصنفين، كراتشي، بدون سنة، ص ٥٥.

٣٦- المرجع السابق، ص ١٥١.

٣٧- هو سَحْبَانُ بْنُ زُفَرِ بْنِ إِيَّاسِ الْوَائِلِيِّ مِنْ بَاهَلَةَ (ف: ٥٤هـ/ ٦٧٤م) من أشهر وأبلغ خطباء العرب، ومن المعرّين كذلك. وُلِدَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَسْلَمَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ مِنْ غَيْرِ الْاجْتِمَاعِ بِهِ، وَالتَّحَقَّ بِمَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ حِينَ وَجَّهَ الشَّامَ. كَانَ طَوِيلَ النَّفْسِ فِي خُطَابَتِهِ قَصِيرَ الْجُمْلِ، يَمِيلُ إِلَى الْوَعْظِ مُتَأَثِّرًا بِالْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ فِي تَعْبِيرَاتِهِمَا. ضُرِبَ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَيَانِ وَالْمَقْدَرَةِ عَلَى الْخُطَابَةِ، فَقِيلَ: "أَخْطَبَ مِنْ سَحْبَانَ"، كَمَا سُمِّيَ "خُطِيبَ الْعَرَبِ". انظر: ذاكتر عبدالحليم ندوي، عربي ادب کی تاریخ، ترقی اردو بیورو، دہلی الجديدة، ١٩٨٩م، ج ٣، ص ٩٣-٩٧؛ عمر فرّوخ، تاریخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ٥، ط، ١٩٨٤م، ج ١، ص ٣٩١-٣٩٢؛ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر، ط ٢، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م، ج ٢، ص ٤٨٢.

الشاعر الكبير الميرزا غالب (المذكور عنه أعلاه) ويقول فيه: (٣٨) [من الرمل]

سجدہ شعر سے واقف ہوں فرزدق کی طرح میں کہ غواص ہوں بحر سُخْن و حکمت کا
"إني لمن العارفين بسجود الشعر الواقفين عليها كالفرزدق" (٣٩)، إذ لم أترك بحراً
من الشعر والحكمة دون الغوص فيه (والخروج منه بما يحوي في بطنه من درر).

فسحبان وائل والفرزدق لم يتسنَّ ورود ذكرهما عند الشعارين بهذه الصورة الحضارية العميقة
إلا لكونها ملمّين بالأدب العربي القديم إماماً فرض عليهما التأثر به بشكل أن عُلِقَتْ هذه المعلومات
الثقافية بالذهن ودخلت من خلاله نسيج فكرهما، ومن هنا تسرّبت إلى ما أنتجت في لغتهما من شعر.

هذا، وأول شاعر في شبه القارة الهندية ذُكر له ديوان في الهندوية (أي الأردية البدائية التي دعوها
الذ: "ريخته" كذلك) - وهو مسعودُ بنُ سعدِ بنِ سلمان اللاهوري (فد: ٥١٥هـ/ ١١٢١م أو ٥٢٥هـ/
١١٣١م) - فإنه كان من الشعراء المجيدين بالعربية (٤٠) والفارسية في المحل الأول. فهو أول من كان
"له ثلاثة دواوين في العربية والفارسية والهندوية" (٤١). وذلك ما صرّح به محمد عوفي في **لباب الالباب**
بقوله: (٤٢)

"اوراسہ دیوان است: یکی بتازی، یکی پیارسی، یکی ہندوی"

- ٣٨- مجلة **اوراق** الصادرة في لاهور، عدد سنوي خاص، فيراير - مارس، ١٩٨١م، ص ٢١.
- ٣٩- روي أن الفرزدق (فد: ١١٠هـ/ ٧٢٨م) حينما سمع البيت التالي من معلقة لبيد سجد، فسأله: لم سجدت؟ فقال:
أنتم أعلم بسجود القرآن، وأنا أعلم بسجود الشعر! والبيت هو: [من الكامل]
وجلا السيول عن الطلول، كأثها زبرٌ نُجِدُّ متوتها أقالمتها
انظر: محمد إسماعيل السلفي، شرح المعلقات السبع، دار نشر الكتب الإسلامية، لاهور، ط١، ١٣٩٩هـ/
١٩٧٩م، ص ١٦٤.
- ٤٠- ومن شعر مسعود بالعربية ما يُتمثل به للإيهام أو التورية من محسنات البديع المعنوية قوله: [من الطويل]
وليلٍ كأن الشمس ضلّت ممرها وليس لها نحو المشرق مرجع
نظرت إليها، والظلام كأنه على العين غرباناً من الجوّ وقّع
فقلت لقلبي: طال ليلى وليس لي من الهم منجاةً، وفي الصبر مفرج
أرى ذنب السرحان في الجوّ ساطعاً فهل ممكن أن الغزاة تطلع
- جميل أحمد، حركة التأليف باللغة العربية في الإقليم الشمالي الهندي في القرنين الثامن والتاسع عشر الميلادي، ص ٥١.
- ٤١- هي ترجمة للنص الفارسي الآتي المقتبس من **لباب الالباب**، وقد أتينا بها مقدّماً تمثيلاً للسياق بحيث لم نكررها ثانية.
- ٤٢- محمد عوفي، **لباب الالباب**، تصحيح وتعليق محمد نقي، كتابفروش ابن سینا، تهران، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م، ص ٤٢٣.

كما أشار إلى ذلك - قبل صاحب اللباب - أمير خسرو الدهلوي (ف: ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) معترفاً
بفضل مسعود سلمان بحيث كون الأخير سابقاً للأول في هذا المضمار (٤٣).

ومن الأمور المسلّم بها عند الباحثين أن الشعر الأردني مبنيٌّ على الشعر العربي في هيكله وفي
عدد من معانيه، وقد تأتّى حصول ذلك عن طريق الشعر الفارسي. وهذا ما وضّحه الطاف حسين حالي
- الشاعر وأكبر النقاد الأوائل بالأردنية (ف: ١٩١٣م) - قائلاً ما معناه: (٤٤)
"إنه قد تأسس الشعر الأردني على مَبْنَى الشعر الفارسي الذي هو مأخوذٌ بنيائهُ
من الشعر العربي".

تأثر الفنون الأدبية الفارسية بالعربية وتوسطها للأردنية:

أما الشعر الفارسي فكان نسخة طبق الأصل العربي في بداية تطوره حتى العهد المتأخر. فمن
يَقْرَأ قصائد الشعراء الفرس عند ذلك، يَلْمُس الأثر العربي واضحاً في هذا الإنتاج الشعري الفارسي.
فعروضه هو عين العروض العربي، إلا أن الفرس اختلفوا في عدد الأركان أو التفاعيل في أوزان معظم
البحور، كما اختلفوا بعدئذ في شيوخ بعض هذه البحور عندهم أكثر. هذا بالإضافة إلى ما اخترعوا من
زحافات، ثم دوائر وبحور جديدة استخراجوها حسبها لاحظوا في العروض العربي من قواعد (٤٥). ومع أن
هناك بحوثاً أجريت في الآونة الأخيرة لإثبات دعوى أن العروض الفارسي له جذور في التقليد الهندي -
أوربي (٤٦)، لكنها محاولات اعتمدت في مجملها على طبيعة اللغة الفارسية والظواهر العروضية الشائعة فيها.

٤٣- ونص كلامه الذي ينم على الاعتراف على الرغم منه: "بیش ازین از شاهان سخن کسی راسه دیوان نبوده، مگر مرا که خسرو کلام،
مسعود سعد سلمان را اگر چه است". (ليس لأحد من ملوك الشعر ثلاثة دواوين قبل هذا في العربية والفارسية والهندوية
(ال: "ريخته") إلا لنفسي أنا الذي أتبوا مكانة ملك ملوك الكلام، وإن كان هناك مسعود سعد سلمان [يسبقني إلى
ذلك]). أمير خسرو دهلوی، *ديباجة ديوان غرة الكمال*، مطبع قيصريه، دلهي، ١، بدون سنة، ص ٦.

٤٤- *تولجيه الطاف حسين حالي، مقدمه شعر وشاعري،* پاپولر پبليشننگ هائوس، لاهور، ١٩٨٩م، ص ١٢٤.

٤٥- انظر لذلك: *دكتور محمد اسلم نيا، علم عروض اور اردو شاعري،* مقتدره قومی زبان، اسلام آباد، ١، ١٩٩٧م، ص ٣٨-٥١؛
آغا صادق، *کتاب فن،* انسٹی ٹیوٹ آف تھریٹورل ڈورلڈ آرٹ اینڈ لٹریچر، لندن، ١، ١٩٨٩م، ص ٦٧-٦٩؛ عبد الوهاب عزام،
"أوزان الشعر وقوافيه في العربية والفارسية والتركية"، *مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، القاهرة،* ج ١، الجزء
الثاني [كذا]، ديسمبر ١٩٣٣م، ص ٤٣-٥٨.

٤٦- *دكتور پرويز تامل خانلری، وزن شعر فارسی، انتشارات توس،* تهران، ط ٦، ١٣٧٣ شمسية هجرية، الفصل الثالث من الباب
الأول خاصة.

هذا، وقد توارث الأردويون هذا الشعر العربي بطابعه الفارسي وألبسوه شعرهم بعد أن جعلوه مناسباً لطبائعهم كذلك. وعلى الرغم من إفادتهم مما كان لديهم من تقليد العروض الهندي الخاص المعروف باسم "فَنَعْل/بَنَگل" أو "سَنَد/چَند" وبعض التقليدات العروضية المحلية الأخرى، فإن الطابع العربي بقي هو المهيمن على كل ما في الشعر الأردني من ظواهر عروضية مختلفة. فنرى العروضين العربي والأردني يتفقان^(٤٧) في نظام الدوائر وأسماء البحور، ثم الزحافات وقواعد التقطيع وكل ما إلى ذلك^(٤٨).

أما فيما يتعلق بهيئة القصيدة الفارسية أو شكلها من حيث التقسيم في المعاني، فكانوا يبدأون قصائدهم بالغزل على طريقة الشعراء العرب، بل وقد استهلوها بالوقوف على الأطلال وديار الحبيب الدارسة كدأب من قلدوهم في ذلك. فهذا لامعي الجرجاني (ف: حوالي ٥/هـ/ ٦م) يبدأ قصيدته بيت نسمع فيه صدًى لما كان يستهلُّ به العرب قصائدهم من الوقوف والاستنطاق، فقال: (٤٩) [من الرجز]

هست این دیاریار، اگر شاید فرو آرم جمل
پرسم رباب و دعد را حال از رسوم و از ظل
"هذه هي ديار الحبيب (قد وُصل إليها)، فمن الجدير بي أن أنيخ جملي (فأنزل بها)
أسائل الأطلال والرسوم عن رباب وعن دعد".

فتلاحظ أن الشاعر الفارسي قد وظَّف اسمين من الأسماء العربية المعروفة للحبائب: "رباب، ودعد"، كما استخدم بعض الكلمات العربية الخاصة المذكورة في مثل هذا الموطن: "رسوم، وظلل". ونمثِّل في هذا الصدد بمثال آخر للشاعر مُعزِّي النيسابوري (ف: ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) الذي يقول

٤٧- انظر حول اتفاق العروضين وبعض ما بينها من اختلاف: محمد بشير، العروض بين العربية والأردية، رسالة مقدَّمة لنيل درجة الماجستير في كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، ١٩٩٢م؛ محمد موسى الروحاني البازي، حاشية محيط الدائرة، مكتبة إمداديه، ملتان، بدون سنة؛ نجم الغني رايبوري، بحر الفصاحت، متبول أليدِي، لاهور، ١٩٨٩م.

٤٨- وقد حاول بعض العروضيين الأردوين أن يستخلصوا قواعد العروض الأردني بالتساير مع الواقع الشعري المَعيش تَبنيًا للاتجاهات العروضية المحلية، متجنِّبين في ذلك الإغراق في إطلاق وتطبيق الزحافات والمصطلحات العروضية العربية والفارسية تيسيراً لقواعد العروض كما فعل الدكتور "غيان تشاند/غيان چند جين" الذي ألَّف في العروض الأردني كتاباً بعنوان: اروو كا ايتا عروض، أي العروض الأردني الخالص، ونُشر أخيراً من قبل مغربي باكستان اردو أكيدِي، لاهور، ١٩٩١م.

٤٩- شبلي نعماني، شعر الجم، المكتبة العلمية، لاهور، ط ٣ (معادة من طبعة دار المصنفين، أعظم گڑھ)، بدون سنة، ج ٤، ص ١٢١؛ Dr. Umar Muhammad Daudpota, *Influence of Arabic Poetry on the Development of Persian Poetry*, Hyderabad, 1988 (reprint of 1st ed. 1934), p 50.

في مطلع قصيدته التي مدح بها السلطان شرف الدين سعد بن عليّ المستوفي: (٥٠) [من الرجز]
 اى ساربان، منزل كمن جزدر ديار يار من تاك زمان زارى كتم بر ربح واطلال ودمن
 "ألا أيها السائقُ الراحلة، لا تنزل إلا بديار حبيبي (الدارسة)، فأسكب الدموع
 (هنالك) ساعةً على تلك الربوع والأطلال والدّمّن".

وهنا تجدر الإشارة إلى أن البيت يبدو ترجمةً حرةً لمطلع معلقة امرئ القيس الشهير، كما نلاحظ به
 أيضاً من كلمات: "ديار، وربيع، وأطلال، ودّمّن". (٥١)

أما القصيدة الأردنية فلم تذهب في تأثرها بالعربية إلى حدّ النسخ منذ بدايتها الأولى، لأنها
 أخذت ثمرةً يانعة من الفارسية في شعرها المتطور، إلا أنها قلّدت في الابتداء بالتشبيب الذي تراوحت
 معانيه بالفارسية من الغزل إلى وصف الربيع إلى غير ذلك من المواضيع المناسبة للاستهلال. فالشعراء
 الأردويون أتبعوا الفرس في هذه الأغراض لابتداء القصيدة (٥٢). وأما التخلص والانتهاه (أو المقطع) فقد

٥٠ - ديوان أمير معزى، تحقيق: عباس اقبال، كتابفروشي اسلاميه، طهران، ١٣١٨ شمسية هجرية، ص ٥٩٧.

٥١ - وللتفصيل حول هذا الموضوع. انظر: شبلي نعماني، شعر العجم، ج ٤، ص ١١٤-١٢٦؛ Dr. Umar Muhammad

٥٢ - Daudpota, *Influence of Arabic Poetry on the Development of Persian Poetry*, Chapter III, IV & V. وقد انفصل هذا الابتداء بالتشبيب أو المقدمة الغزلية عن القصيدة بآياً على اسمه كغزل، وأصبح فناً مستقلاً في

الأدب الفارسي مغايراً للقصيدة على يد الشاعر الفارسي المتصوف "سائل غزنوي" (ف: ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م). ثم انتقل من الفارسية إلى الأردنية بهذه الهوية المستقلة جنباً إلى جنب مع فن القصيدة الذي لم يواكب الأول على مرّ العصور. وفي هذا الـ: "غزل" الفارسي والأردني يصف الشاعر أحوال وتقلبات النفس وتصرفاتها المختلفة مما يجري بين حبيين من شتى نوازع الحب وهو اجسه وأشجانه بصورة تبعث على التعاطف معه في الغالب الكثير كما هو معهود في الشعر العربي. لكن الشاعر الفارسي فالأردني لم يقتصر في هذا الـ: "غزل" المستقل على بيان الحب وذكر الحبيب وما يطرأ على المحبين من أحوال، وإنما تعدّى ذلك إلى أن يبث فيه همومه الاجتماعية وما يقلق منه ويحزن عليه من أوضاع مضطربة فاسدة، وكذلك ما يكتب من أجله مما يجد له في قلبه المهوم من غوائل الدهر الخائن، إضافةً إلى ما يرمي إليه من تسجيل خواطر مبهجة منعشة، والتعبير عما يعجبه ويروقه من أمور، وعلاوةً على الافتخار بنفسه والإشادة بذكر يَكُنُّ التقدير له من أشخاص؛ مزاجاً بين ذلك كله وبين ما ينتزعه من تغزله المحض من رموز ودلالات يُسْقِطُها على ما يقصده من أمور وتجارب الحياة الكثيرة، مستخدماً من أجله الأساليب المختلفة المتنوعة. كذلك ينطوي الـ: "غزل" على أفكار روحية صوفية من خلال ما يُسمّى بـ: "شعر الحب الإلهي" وما يُدعى في النقد العربي بـ: "الغزل الديني" كذلك، كما يتعرض لأخيلة فلسفية بحثة تشمل قضايا إنسانيةً مشتركة تتعلق بمنشأ الكون ومصير الإنسان فيه.

أفاد الفرس في طريقة عرضها وكيفية حسنهما وبراعتها من العربية كذلك، والأردويون احتدوا هؤلاء في ذلك أيضاً (٥٣).

وليس من نافلة القول أن نلمح في هذا المكان إلى أن الأمر كذلك بالنسبة لأخذ الكثير من التلميحات التي نجدها عند الشعراء الأردويين، والتي لها صلة بالحوادث والوقائع التي تضمّنتها كتب التراث العربي، نحو الكتب الدينية والتاريخية والأدبية، تلك الوقائع والحوادث التي وجدت طريقها إلى الشعر الفارسي الذي تأثرت الأردية في ذلك عن طريقه في الغالب الأكثر. ولا يُنكر ما مثل هذه الأشياء من أهمية في مجال الشعر خاصة، فقد استلهموا منها معاني جديدة مبتدعة، كما استخدموها في أغراض

هذا، وأما فيما يتعلق بهيئة الـ: "غزل" أو شكله كفن شعريّ معين، فإنه يتكوّن من خمسة أبيات على أقلّ تقدير، ولا يتجاوز عددها خمسة أو سبعة عشر بيتاً على العموم، وإن كان هناك من القدماء - ومن ينزع منزعهم - من تطول غزلياتهم أكثر. ثم إنه لا يوجد هناك ما يُسمّى "الوحدة العضوية" (Organic Unity) لتربط فيما بين أبيات "غزل" واحد. على ذلك فلكل بيت منه معنى أو مضمون مستقل يجعله مكتفياً بنفسه، وبالتالي، متصفاً بالإيجاز بمعنى الكلمة. وقد يوجد في مجموعة بيتين فأكثر داخل الـ: "غزل" نوعٌ من التآلف على أساس الوحدة الفكرية، وتُسمّى "قطع" أو "قطع بند" بالأحرى. فالـ: "غزل" إذن لا يجمع بين أبياتها القليلة أو الكثيرة إلا الوزن والقافية، ثم الـ: "رديف" على العموم. ويلتزم الشاعر بالتصريح في مطلع غزله، وإلا فلا يُدعى "مطلع"، كما أنه قد جرت العادة بأن يُذكر الـ: "تخلص" في البيت الأخير الذي يُسمّى "مقطع" عند ذلك.

وأما الـ: "تخلص"، بهذه المناسبة، فهو مصطلح لا يمتُّ هنا بصلة إلى الاصطلاح الشعري المعروف في القصيدة (والذي قد يُسمّى "خروجاً" في النقد العربي القديم)، وإنما أُطلق على ما يختاره الشاعر من اسم - عدا اسمه الحقيقي، أو كنيته، أو لقبه - يأتي به في شعره، خاصة في أواخر أبيات القصائد والـ: "غزليات". وقد يكون جزءاً من اسمه، وإلا فيصبح منه. ولم تجر به العادة إلا في الشعر الفارسي، ومنه جاء إلى الأردية. وبإمكاننا أن نطلق عليه "اللقب الشعري" على حدّ تعبير الدكتور جميل أحمد، ولكنه لا يوحي بالمعنى بالضبط، كما قد تشبهه في اللغات الأوربية مصطلحات: "pseudonym" و"nom de plume" و"nom de guerre" و"anonym" و"pen-name"، لكنها ليست الـ: "تخلص"، كما تعرفه الأردية والفارسية، وإنما تعني فقط الاسم القلمي أو المستعار الذي يتخذه الكاتب لدى نشر كتاباته بدلاً عن اسمه الحقيقي.

طارق هاشمي، *ارو غزل - نبي تكميل، نيشل بك فاؤنڈيشن*، إسلام آباد، ط ١، ٢٠٠٨م، ص ١٨-٢٣؛ جميل أحمد، حركة التأليف باللغة العربية في الإقليم الشمالي الهندي في القرنين الثامن والتاسع عشر الميلادي، ص ١٣١؛ *انور جمال، اوبى اصطلاحات، نيشل بك فاؤنڈيشن*، إسلام آباد، ط ١، ١٩٩٣م، تحت مواد: غزل، قطعه، مطلع، مقطع، تخلص؛ *The Concise Oxford Dictionary*، تحت المواد المذكورة.

وإيجاءاتٍ مختلفة كثيرة. فمن هذه التلميحات التي كانوا قد أسقطوها على مواقف شتى بما قصدوا من طرح المعاني بصورة مبتكرة طريفة: (٥٤)

صحراء نجد: أي صحراء نجد، وفي ذلك إشارة إلى قصة حب شهيرة جرت بين المجنون قيس (ف: حوالي ٦٨ هـ / ٦٨٨ م) وليلى العامرية.

حرف كُن: أي كلمة "كن" فعل الأمر من "كان"، وفيه إشارة إلى ما ورد في القرآن من بيان عن قدرة الله عز وجل حيث قال تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ (سورة البقرة، الآية: ١١٧).
كوه طور: أي جبل الطور الذي أعطيت به النبوة لموسى عليه السلام.

يوم الست: أي اليوم الذي قال فيه سبحانه وتعالى للأرواح: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ١٧٢).
عجائب مسجالي: أي معجزات النبي عيسى عليه السلام.

كما سبقت الإشارة إلى "سبحان وأهل" موظفًا في بيت من الشعر لأحد شعراء الأردية المتأخرين هو أمير الله تسليم، و"سجده شعر" موظفًا في بيت شعرٍ لشاعر من العصر الحاضر عبد العزيز خالد، وإن كان مثل هذين التلميحين الأخيرين قد ندر وجوده في الوقت الراهن إلا عند الشعراء العلماء المتمكنين.
الأثر العربي في قواعد الأردية:

هذا والأهم من ذلك كله تأثير قواعد اللغة العربية في المصطلح القواعدي الأردني وكثير من التطبيقات. فقد استمد علماء اللغة الأردية في تشكيل قواعد لغتهم من النموذج الفارسي الذي طبعته العربية بطابع لا يُمحى من قواعدها. وربما استفادوا من العربية مباشرة، ولكنه ما أمكنني التبين من كيفية هذا التأثير بكل من العربية والفارسية، إلا أن الذي وجدته بهذا الصدد عند التصفح لأوائل الكتب التي أُلِّفت في مجال قواعد اللغة الأردية هو أنهم أطلقوا مصطلحات النحو والصرف وطبقوا تعريفاتها العربية بمعظمها على الكلمة والجملة الأرديتين إطلاقاً وتطبيقاً كاملين. فهذا سيد أحمد خان (ف: ١٩٨٩ م) أَلَّفَ في عام ١٨٣٠ م كتاباً صغيراً باسم: **قواعد صرف ومخوِّبان اردو** (٥٥)، واستخدم فيه الاصطلاحات القواعدية

٥٤ - محمد اقبال، عطاء الرحمن عتيق، تعمیر ادب، پولیسریپلی کیشنز، بدون سنة، لاهور، ص ٢٢-٢٣.

٥٥ - منشور أخيراً من قبل انجمن ترقی اردو پاکستان في كراتشي عام ١٩٨٧ م بتحقيق: عبدالغفار شکیل. وكان قد نُشر في طبعته الأولى سنة ١٨٤٢ م. وهناك كتابان آخران في قواعد الأردية أُلِّفا في القرن التاسع عشر كذلك تحت تأثير القواعد العربية والفارسية، هما: **فيض كاشميه** للمولوي أحمد علي الدهلوي (عام ١٨٢٥ هـ)، و **اردو صرف و نحو** للمولوي إمام بخش الصهبائي، عام ١٨٤٩ م.

العربية بحروفها وحرفيتها من مثل الاسم والفعل والتعدّي واللزوم والمصدر والأمر والنهي... إلخ، كما إنه يوجد بالكتاب مبحث حول بيان المبتدأ والخبر، ثم المضاف والمضاف إليه والشرط وجزائه، وكذلك العطف والمؤنث السماعي.

وهناك كتاب آخر بعنوان: **مصباح القواعد** في جزئين لمؤلفه المولوي فتح محمد خان الجالندري (جالندهرى) (٥٦)، يتعرض الجزء الأول منه لعلم الصرف، وأما الثاني فيبحث في النحو. وقد حاول المؤلف فيهما التطبيق لقواعد اللغة العربية تطبيقاً كاملاً شاملاً بحيث نجد في الجزء الثاني مثلاً - وهو في النحو - الحديث عن الإضافة وما تنقسم إليه من أنواع مختلفة نحو التمليلية والتوضيحية والبيانية... إلخ، كما أورد المؤلف بياناً عن المركب الامتزاجي (أو المزجي)، ثم عن نائب الفاعل (أو ما لم يُسمَّ فاعله) والمفاعيل الخمسة، وكذلك التمييز والعدد، والبدل والمبدل منه. وقد جاء في آخر هذا الجزء بفصل كامل في الحروف يذكّرنا بـ: **مغني اللبيب لابن هشام** (ف: ٧٦١هـ / ١٣٦٠م) بما ساق فيه الأخير من كلام على حروف مختلفة - عاملة كانت أو هاملة - من حروف المعاني بنى عليها جزءاً كبيراً من كتابه.

هذه كانت بداية التأليف في قواعد اللغة الأردنية. أما الآن فالوضع لا يختلف كثيراً عما كان عليه من قبل، فإن المصطلحات الصرفية والنحوية هي بعينها في الأردنية كما في العربية بفارق الاختصار بعض الشيء والتخلي عن المصطلحات التي يمكن الاستغناء عنها بالأردنية، وإخراج التفاصيل الدقيقة الأخرى التي تشعبت مباحثه من غير طائل، مع إدخال بعض العناصر اللغوية المحلية بحيث لم تستطع هذه الأشياء الطغيان على ما انطبعت به القواعد في الأردنية من طابع اصطلاحى عربي مملوس (٥٧) (٥٨).

٥٦ - منشور بمطبعة ناظم برقي برس في رامبور، عام ١٩٤٥م.

٥٧ - انظر لتبين ما قلنا: سمير عبد الحميد إبراهيم، القواعد الأساسية لدراسة الأردنية، ملك بك دؤو، لاهور، ١٩٩١م.

٥٨ - وقد لاحظ الدكتور شوكت السبزواري (ف: ١٩٧٣م) أن قواعد اللغة الأردنية إما وُضعت تحت تأثير من قواعد اللغة العربية والفارسية (على يد العلماء المسلمين في شبه القارة) أو بالتأثر من قواعد اللغة اللاتينية والإنجليزية (فيما أُلّفه المستشرقون في ذلك) بعدم وضع طبيعة اللغة الأردنية في الحسبان وبغض النظر عما في تقليد اللغات الهندية المحلية من أصول ومبادئ لغوية. فقام الدكتور شوكت بنفسه بوضع قواعد اللغة الأردنية وفقاً لطبيعتها الهندية المحلية، إلا أنه لم يمتص في ذلك طويلاً إذ وافاه الأجل، بقي عمله ناقصاً غير شامل إلا لمبحث الاسم فقط. ونُشر هذا العمل غير التام بعنوان: **أرودقواعد** من قبل مكتبة أسلوب في كراتشي عام ١٩٨٢م بتقديم الباحث المحقق مشفق الخواجه وتعليق الحواشي بيراع الدكتور قدرت التقوي.

التأثير العربي في النقد الأردني:

وفي هذا الصدد أكتفي بالإشارة إلى كتابين في النقد الأردني هما: **مقدمة شعر وشاعري** (٥٩) للطاف حسين حالي (ف: ١٩١٣م) (٦٠)، و **معروضي تنقيد** (٦١) للدكتور السيد وفار أحمد الرضوي (٦٢). فقد استفاد المؤلفان في كتابيهما من النقد العربي القديم من حيث العرض والتدليل. أما فيما يتعلق بتأليف حالي فمما جاء به في كتابه من بحث في تعريف الشعر وما يتصل به من مطالب، فقد أورد ضمنه ما ساقه ابن رشيق القيرواني (ف: ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) في الموضوع، ووازن بينه وبين ما لـ: "ملتون" (الشاعر الإنجليزي المعروف، ف: ١٦٧٤م) من بيان في هذا الصدد (٦٣)، كما أخذ من العقد الفريد بعض الشواهد في معارضة القول: "أحسن الشعر أكذبه"؛ منها بيت شعرٍ نسبه صاحب العقد (ف: ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م) إلى زهير بن أبي سلمى (٦٤) ونقله حالي بالإحالة عليه: (٦٥) [من البسيط]

وإنَّ أحسن بيتٍ أنت قائله بيتٌ يُقال إذا أنشدته: صدَقاً (٦٦)

فهذه الشواهد عثرت عليها في **مقدمة شعر وشاعري** بمجرد التصفح على غير هدى. وهناك الكثير من ذلك لمن يتناول الكتاب بدراسة على حدة.

-
- ٥٩- وكان أصلاً مقدمةً لديوانه الشعري، ثم اعتُبرت هذه المقدمة على مثال مقدمة ابن خلدون، ومن حيث كونها محيطةً بالموضوع مبسوطاً في ذلك، مؤلفاً مستقلاً في أصول نقد الشعر. والأمد بعيد والكتاب ما زال مرجعاً حياً لدارسي النقد الأردني.
- ٦٠- جديرٌ بالذكر أن الطاف حسين حالي هذا كان يقرض الشعر أحياناً بالعربية كذلك. ومما يُستجد من شعره العربي قصيدته البائية التي أولها: [من الطويل]
- هوى الحور بلوى كلِّ حَبْرٍ ونادِبٍ وفتنةٌ قَسِيَسٍ وزَلَّةٌ راهِبٍ
- انظر: **كليات نظم حالي**، طبعة لاهور، ط ١، ١٩٧٠م، ملحق رقم ٣، ص ٤٣٤-٤٤٠.
- ٦١- منشور من قبل **رائل بك كينى بكراتشي** سنة ١٩٨٩م.
- ٦٢- والمؤلف حيٌّ يُرزق، مقيم في كراتشي، وله إسهامات في مجال البحث والنقد الأدبي الأردني.
- ٦٣- **مقدمة شعر وشاعري**، ص ١٠٦.
- ٦٤- أبو عمر أحمد بن محمد عبد ربّه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، ج ٥، ص ٣٢٦.
- ٦٥- **مقدمة شعر وشاعري**، ص ١٠٦.
- ٦٦- والبيت لا يوجد في ديوان زهير، طبعة دار صادر، بيروت، وإنما نجده عند حسن بن ثابت بتغيير يسير في شطره الأول، أي موضوعاً هناك كلمة "أشعر" مكان "أحسن"، كما أنه توجد الرواية في بعض الأصول هكذا: "وإنَّ أفضل بيتٍ... إلخ". انظر: ديوان حسن بن ثابت الأنصاري، دار صادر، بيروت، بدون سنة، ص ١٦٩؛ ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٢٧٠ و ٣٢٦.

وأما الدكتور وقار أحمد فقد عرض في الباب الرابع من كتابه لمباحث نقد الشعر وترجمة مؤلفه قدامة بن جعفر (ف: ٣٣٧هـ / ٩٤٨م)، كما أورد قبله في الباب الثالث أقوالاً كثيرة للنقاد العرب القدامى في معرض الحديث عن تعريف الشعر وما يتعلق به من مباحث. فأحال على ابن رشيقي في كتابه العمدة هذا القول مثلاً: "... لا يُسمَّى شعراً حتى يكون له وزنٌ وقافية" (٦٧). كذلك جاء ببيانات كل من الجاحظ (ف: ٢٥٥هـ / ٨٦٩م) وابن خلدون (ف: ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) والقاضي الجرجاني (ف: ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م) في هذا الصدد (٦٨).

وهناك آخرون أمثال المولوي عبد الرحمن في *مرآة الشعر* (٦٩)، والعلامة محمد إقبال (الشاعر المفكر) في عديد من مقالاته وفي شعره كذلك بحيث تتضح من خلاله نظرتَه إلى الفن، تلك التي أفاد فيها من القرآن وأقوال النبي عليه السلام (٧٠). وأما المولوي عبد الرحمن فقد تحدّث في مؤلفه عن الشعر وما يتصل به من مباحث نظيرية مختلفة، كما جاء بشواهد من كلام العرب شعراً ونثراً إلى جانب إيراده أمثلةً فارسية وأردية.

وإلى هنا نختم هذا البحث راجين أن تُتبعه ببحث آخر امتداداً لبيان هذه الصلات والأواصر المشتركة بين العربية والأردية، ولكن في حقل معيّن هو "البلاغة". على كل، فهذه نظرةٌ - وإن كانت غير شاملة - على ما بين اللغتين من وشائج متينة وعلاقات وثيقة على الصعيدين اللغوي والأدبي، وأرجو أن أكون قد وُفِّت إلى تقديمها للقراء، علماً بأنه من الصعوبة بمكان في مثل هذه الدراسات الإحاطة بالموضوع، كما أنه ليس من السهل عرض كل ما يعثر عليه الباحث وما يقابله حتى في مطالعاته المحدودة بالنظر إلى اتساع الموضوع والمادّة المتاحة المتوفرة حول ذلك. فذلكم غيَضٌ من فيض، كما يقولون، إن أفاد شيئاً فمن توفيقه تعالى اسمه وجل شأنه، وإن لوحظ عليه خطأٌ - أيّاً كان - فالرجاء تصويبه وتسديد خطي كاتب البحث، والكمال لله وحده!

-
- ٦٧- أبو علي الحسن بن رشيقي القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط ٤، ١٩٧٢م، ج ١، ص ١٥١.
- ٦٨- *معروضي تقييم*، ص ٧٩-٨١.
- ٦٩- منشور بمطبعة جيد برقي برس في دلهي عام ١٩٢٦م.
- ٧٠- انظر: إنعام الحق غازي، "نظرة العلامة محمد إقبال إلى الفن"، مجلة الدراسات الإسلامية، ج ٣٢، ع ٤، ربيع الآخر - جمادى الآخرة ١٤١٧هـ / أكتوبر - ديسمبر ١٩٩٦م، ص ٦٧-٨٢.

Abstract

Some Important Aspects of Linguistic and Literary Affinities Between Arabic and Urdu

This article throws light on some linguistic as well as literary affinities between Arabic and Urdu. These affinities developed through a long history of cultural interaction that initially started between Arabs and coastal inhabitants of India. The latter then became the subjects of the former, starting from the caliphate of ‘Umar bin al-Khaṭṭāb in 15AH/636AD till 416AH/1025AD. When Ghaznavis took over the Sub-continent, Persian became the official language of India. After a brief account of these historical developments, the article takes a close look at both the languages to bring out some hitherto unnoticed relations between Arabic and Urdu. It describes initially how the Urdu language evolved to be used as a lingua franca for the inhabitants of India, in addition to alluding to the fact that both Hindus and Muslims contributed toward upbringing this newly born language. The article highlights the potential energy of Urdu to express and produce a lot of translated as well as original pieces of prose and poetry. In some ways Arabic also became influenced by Urdu and borrowed few words from the latter. However in comparison with the impact that Arabic did exert on Urdu, not only in field of language (especially in word expressions and grammar), but also in the realm of literature (in poetry and criticism), the influence of Urdu had been minimal.

مكانة "مختصر القدوري" في الفقه الحنفي

عبد الله نذير أحمد مزي

المقدمة:

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وصلوات الله تعالى وسلامه على سيد الأولين والآخرين، معلم الناس الخير، سيدنا محمد وعلى آله الأطهار وصحبه الأبرار وكل من والاه إلى يوم الدين.

وبعد، فقد تفنن الفقهاء في نشر علم الفقه في أوساط المجتمع الإسلامي كافة، بطرق وأساليب شتى عبر العصور والأمصار: فوضعوا كتباً خاصة لكل مذهب من المذاهب الأربعة المشهورة، تارة مقترنة بالأدلة والحجج المؤيدة لكل قول، ليدرك القارئ أصل قول ومذهب المجتهد؛ وتارة أخرى: متوناً مختصرة، مجردة عن الأدلة، تيسيراً وعاوناً للمبتدئين على الحفظ والاستذكار، وتذكرة وعاوناً للعلماء والمفتين، علماً بأن هذه المسائل الفقهية درست وتُتحت وصيغت صياغة علمية، وعلق عليها من أفاضل أئمة كل مذهب عبر القرون، كما أنها أشبعت بحثاً من حيث الدليل والتعليل والمناقشة والتخريج والترجيح، ومظانها معلومة ومعروفة.

وعلى المنوال الأخير وضع الإمام أبو الحسين أحمد بن محمد القدوري الحنفي، كتابه المختصر مختصر القدوري أو متن القدوري في فقه المذهب الحنفي، ومختصر القدوري يُعد: أهم متون فروع المذهب من بين المتون الأربعة المعتمدة في المذهب. ومن هنا اهتم فقهاء الحنفية اهتماماً بالغاً بهذا المختصر، حتى زاد ما كُتب حول هذا الكتاب من شروح وحواشٍ وتنبهات واستدراكات وترجيحات وتصحيحات ومختصرات وترجمة ما يربو على مائة كتاب، وقد بلغ من تقدير فقهاء الحنفية لهذا المختصر أنهم لا يسمونه إلا "الكتاب" أو "المختصر المبارك" ونحوهما من ألقاب التقدير والإجلال.

اعتنى المسلمون من أصحاب المذهب الحنفي بهذا المختصر عناية فائقة، وخاصة أحناف القارة

الهندية وتركيا، والدول الإسلامية المستقلة عن الاتحاد السوفياتي سابقاً، فقد كان لهؤلاء شأن آخر من الاحتراف والتعظيم لهذا المختصر المبارك، ويتمثل ذلك في الحفظ عن ظهر قلب وتحفيظ الصغار له وإقراءه، وشرحه وترجمته، وترجمة بعض شروحه إلى اللغات المحلية والقومية، حتى أصبح الكتاب الأول لطلبة الفقه الإسلامي في المدارس الدينية، ومن شدة اعتقادهم وحبهم للمختصر يقرأونه لدفع الكوارث والشدائد والنوازل تيمناً وتبركاً.

وهذا ما دفعني للبحث والكتابة عن حقيقة هذا المؤلف ومؤلفه، والبحث عن سر هذا القبول المنقطع النظير لهذا المختصر، ومعرفة أسلوب المصنّف في العرض، وسبب ترجيح المختصر على سائر المتون في المذهب، وجمع بعض ما سطره العلماء عن المصنّف ومُصنّفه من الإطراء والثناء، ومكانة هذا الكتاب في المذهب الحنفي. وجاء البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة. أرجو من الله عز وجل أن أكون قد وُفِّقْتُ في بيان مكانة الإمام الجليل القدوري بين الفقهاء، وقدر مختصره المبارك بين كتب الحنفية، والله الموفق والمعين، وصلى الله وسلم على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد:

في التعريف بالمختصرات والمتون، ونشأتها، ومميزاتها.

تعريف الاختصار لغة:

"اختصر فلان: وضع يده على خصره، واختصر الطريق: سلك أقربَه، واختصر الشيء والكلام: حذف الفضول منه"^(١). وقال الجوهري: "واختصار الطريق: سلوك أقربَه، واختصار الكلام: إيجازه"^(٢).

التعريف الاصطلاحي:

ورد للاختصار معانٍ كثيرة في اصطلاحات العلماء، وكلها تدور حول: "إيجاز اللفظ مع استيفاء المعنى". قال الكفوي: "الاختصار عرفاً: تقليل المباني مع إبقاء المعاني، أو حذف عَرَض الكلام"^(٣). ووضح ذلك صاحب المعنى في مقدمة كتابه بقوله: "اختصرت هذا الكتاب" يعني: قرَّبته وقللت ألفاظه وأوجزته. والاختصار: هو تقليل الشيء، وقد يكون اختصار الكتاب بتقليل مسائله، وقد يكون بتقليل ألفاظه مع تأدية المعنى"^(٤).

١- أحمد بن حسن الزيات ورفقاؤه، المعجم الوسيط، مادة "خصر".

٢- إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، مادة "خصر".

٣- أيوب بن موسى الكفوي، الكليات، تحقيق عدنان درويش وغيره، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٩هـ ص ٦٠.

٤- عبد الله بن أحمد بن قدامة، المعنى، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي وغيره، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ٢، ١٤١٢هـ، ٧/١.

وعرّف الدكتور أبو سليمان المختصر الفقهية بتعريف جامع مانع ووضّحه بأمثلة: قائلاً "كلمة المختصر شاع استعمالها لكتاب يختصره، وتُستل مادته من كتاب آخر مطول، ولكن لا تعني هذا المعنى دائماً، فقد يطلق على الكتاب مختصراً لا بالمعاني السابقة؛ بل لاشتغاله على أهم المعلومات في ذلك الفن بأخصر العبارات وأجزها، دون أن يكون اختصاراً من كتاب معيّن، مثل:

- مختصر القدوري في فقه الحنفية، تأليف العلامة الفقيه الشيخ أحمد القدوري (ت ٤٢٨هـ).
 - مختصر سيدي خليل بن إسحاق المالكي (ت ٧٦٧هـ) في فقه المالكية.
 - مختصر الخرقى للخرقى (ت ٣٣٤هـ) في فقه الحنابلة.
- جميع هذه الكتب الفقهية وغيرها، أطلق عليها هذا العنوان "المختصر" ابتداءً بذلك المعنى، وليست في الحقيقة اختصاراً لكتاب معين" (٥).
- ظهر مما سبق أن المختصرات أنواع:

- النوع الأول منها: أن يكون المختصر ابتداءً، مثل مختصر أبي شجاع (ت ٥٩٣هـ) عند الشافعية ويسمى الغاية والتقريب. ومختصر القدوري (ت ٤٢٨هـ) عند الحنفية ويسمى الكتاب وغيرهما.
- والنوع الثاني: أن يكون المختصر تابعاً لكتاب أصل اختصر منه واحتوى مسائله مثل:
- كنز الدقائق عند الحنفية، اختصره النسفي (ت ٧١٠هـ) من كتابه الوافي.
 - زاد المستقنع عند الحنابلة، اختصره الحجاوي (ت ٩٦٨هـ) من كتاب المقنع لابن قدامة (ت ٦٢٠هـ).
- النوع الثالث: أن يكون المختصر تابعاً لعدة كتب أصول اختصر منها واحتوى مسائلها، فكان جامعاً لخلاصة هذه الأصول، وإن لم يسمها بعض أصحابها مختصراً، مثل:
- المختار للفتوى للموصلي (ت ٦٨٣هـ) فقد قال في مقدمته: "فقد رغب إليّ مَنْ وجب عليّ أن أجمع له مختصراً في الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه وأرضاه، مقتصراً فيه على مذهبه معتمداً على فتواه، فجمعت له هذا المختصر كما طلبه وتوخاه، وسميته: المختار للفتوى .." (٦).
 - الهداية شرح بداية المبتدي للمرغيناني (ت ٥٩٣هـ).

فيقول مؤلفه بعد انتهائه من شرحه كفاية المنتهي وابتدائه لـ: الهداية: "... تبينت فيه نبداً من

٥- عبد الوهاب بن إبراهيم أبو سليمان، منهج البحث في الفقه، المكتبة المكية، مكة المكرمة، ودار ابن حزم، بيروت، ط ١٤١٦هـ، ص ١٤٤.

٦- عبد الله بن محمود الموصلي، الاختيار لتعليل المختار، تحقيق: عبد اللطيف محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ١٤٢٦هـ، ص ٦٥، المقدمة.

الإطناب، وخشيت أن يهجر لأجله الكتاب فصرفت العنان والعناية إلى شرح آخر موسوم بـ: الهداية أجمع فيه بتوفيق الله تعالى بين عيون الرواية ومتون الدراية، تاركاً للزوائد في كل باب، معرضاً عن هذا النوع من الإسهاب...^(٧) وغيرها من كتب المذاهب^(٨).

تعريف المتن:

بعد ما عرّفت "المختصر" ووضحت أصله وأنواعه واصطلاحاته، لا بد من التعرض لاصطلاح "المتن". فالمصطلحان يتداخلان مرة وينفردان أخرى، ولتكملة الصورة عن المختصر والمتن، ورفع الالتباس عن التداخل بينهما، ولتوضيح ما بينهما من العموم والخصوص، ذكرت مصطلح المتن.

المتن لغة:

كما في المعجم الوسيط: "الظهر (يذكر ويؤنث) ومتن الأرض: ما ارتفع وصلب منها"^(٩). وقال الفيروزآبادي: "المتن: النكاح، والحلف، والضرب، أو شديده، والدّهَاب في الأرض، والمدُّ، وما صلّب من الأرض وارتفع... والرّجُل الصُّلْب... متنا الظهر: مكتنفا الصُّلْب، ويؤنث"^(١٠).

وفي الاصطلاح:

"متن الكتاب: الأصل الذي يشرح، وتضاف إليه الحواشي"^(١١). وفي اصطلاح المحدثين: "المتن: هو غاية ما ينتهي إليه الإسناد من الكلام"^(١٢). وعرفه الشيخ بكر أبو زيد بعبارة أشمل فقال: "المتن: هو ما يكتبه مؤلفه ابتداءً، أو استخلاصاً من كتب من سبقه، دون الارتباط بشرح كتاب آخر، ثم يلحق المتن الشرح وما إليه. فالمتن إذاً يُطلق على (الكتاب) المقابل للشرح"^(١٣).

٧- علي بن أبي بكر المرغيناني، الهداية، تحقيق: محمد محمد تامر، دار السلام للطباعة والنشر والترجمة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ص ١١، مقدمة.

٨- انظر بالتفصيل: عبد الله الشمراني، المدخل إلى علم المختصرات، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤٢٩هـ، ص ٩٧ وما بعدها، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، تحقيق: أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ، ص ١٥٦.

٩- المعجم الوسيط، مادة "متن".

١٠- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة "متن".

١١- المعجم الوسيط، مادة "متن".

١٢- محمد بن سعيد مقديش، نزهة النظر في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨٨م، ص ١٠٦.

١٣- بكر بن عبد الله أبو زيد، المدخل المفصل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل، دار العاصمة، الرياض، ط ١، ١٤١٧هـ، ٦٧٨/٢.

وعرّفه الشيخ مصطفى الزرقاء مبيناً العلاقة بين المعنى اللغوي والعرفي: "المتن - بفتح فسكون - أصل معناه في اللغة: ما يكون في جانب صُلب الحيوان من لحم وعَصَبٍ، فللظهر متنان من جانبي العمود الفقري، وقد يطلق المتن في الاستعمال على الظهر كله. وقد سَمَّوا به في الاصطلاح هذه المختصرات العلمية؛ لأنها تتضمن المسائل الأساسية التي يُحْمَل عليها غيرها، كما أن الظهر أساس للركوب والحمل" (١٤).

فمما سبق من تعريف المتن لغة واصطلاحاً يتبين: أن المتن يأتي بمعنى "المختصر"، ولكن هل كل متن مختصر، وهل كل مختصر متن؟ فإن المتن يأتي مقابلاً لـ: "الشرح" فيقال: هذا متن، وهذا شرح أو شرحه. ومن ثمَّ فإن "المتن" لا يكون مختصراً مطرداً دائماً، فكل كتاب مشروح يُعَدُّ متنًا، ولو كان هذا المتن المشروح مطولاً. فتقول صحيح البخاري متن، وفتح الباري شرح، وهكذا. فكما أن المتن يأتي مقابلاً للمختصر أحياناً، فإنه يأتي مقابلاً للكتاب المشروح صغيراً كان أم كبيراً (١٥).

نشأة المختصرات ومميزاتها:

عُرف المتقدمون من طلبة العلم بالحرص الشديد على طلب العلم، والنهم في التحصيل، وطول السفر وتحمل المشاق في سبيل الحصول على نسخة المؤلف أو الاستماع من المصنف، أو لرواية الحديث بالسند العالي، أو الاستملاء من المحدث أو لمعرفة مسألة فقهية من فقيه معين، وهكذا.

فكتب التراجم مليئة بناذج مضيئة من حرص الطلب، والرحلة في سبيل ذلك، وبذل الغالي والنفيس في سبيل الوصول إلى الهدف المنشود. فقد كانوا أصحاب هم عالية شاحخة كقمم الجبال، تدل عليها تصانيفهم المطولات؛ حيث يقف الواحد منا أمام نتاج قرائحهم في جميع الفنون، بإكبار واحترام، مع أن أكثر تصانيفهم قد اندثرت.

وقد أعقب هذا الرعيل الأول من الطلاب النجباء، والعلماء الفضلاء، والأئمة العظام في شتى فنون العلم، طلاب علم همهم ضعيفة، وصبرهم في الطلب أقل، بسبب ركونهم إلى الدعة والرفاهية، وميلهم إلى الأغراض الدنيوية، "فصاروا يطلبون المختصرات ولا ينشطون للمطولات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها، فدثرت الكتب ولم تنسخ" (١٦).

١٤ - مصطفى أحمد الزرقاء، المدخل الفقهي العام، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤١٨هـ، ١/٢١٢.

١٥ - انظر: المدخل إلى علم المختصرات، ص ٢٨ وما بعدها.

١٦ - كما قال الإمام عبد الرحمن بن علي بن الجوزي في صيد الخاطر، تحقيق: عامر بن علي ياسين، دار ابن خزيمة، الرياض، ط ٢، ١٤١٩هـ، ص ٧٠٦.

وبظهور هذه العلة المثبطة وغيرها من أمراض المجتمعات العائقة في الاستمرار على مناهج السابقين في طلب العلم، رأى العلماء كتابة المختصرات في شتى فنون العلم عامة، وفي الفقه المذهبي (على القول الواحد المعتمد في المذهب) خاصة لما في ذلك من: ضبط مادة العلم في ذهن الطلبة، واستحضارها دائماً، والوصول إلى معرفة أحكام المسائل بيسر وسهولة.

بالإضافة إلى التشويق إلى الطلب، وتيسر الحفظ وضبطه أيضاً، واستيعاب عامة مسائل الفقه حفظاً وإدراكاً، مما يعين الصغار والكبار على سرعة استحضار الأحكام حين الاستفتاء والسؤال والحاجة إليها. كما راعى المربون في تصنيف المتون والمختصرات أسلوب الترتيب والتدرج في سلم الطلب، ليتلاءم المختصر مع سن الطالب العمري والثقافي، ليتدرج في التحصيل العلمي من الأسهل إلى الأصعب، ومن الأصول إلى الفروع، ومن المتون إلى الشروح، وهكذا.

يقول ابن الهمام الحنفي (ت ٨٦١هـ) في مقدمة مختصره في الأصول، بعد كتابته بطول وإسهاب: "... فظهر لي بعد قليل أنه سفر كبير، وعرفت من أهل العصر انصراف همهم في غير الفقه إلى المختصرات، وإعراضهم عن الكتب المطولات، فعدلت إلى مختصر متضمن، إن شاء الله تعالى، الغرضين... (١٧).

وقال الخرقى في مقدمة مختصره: "اختصرت هذا الكتاب على مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه ليقرب على متعلمه". وقال ابن قدامة شارحاً وموضحاً قول الخرقى: "فائدة الاختصار: التقريب والتسهيل على من أراد تعلمه وحفظه، فإن الكلام يختصر ليحفظ، ويطول ليُفهم" (١٨). وقال أبو إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦هـ) في مقدمة التنبيه: "هذا كتاب مختصر في أصول مذهب الشافعي، إذا قرأه المبتدي وتصوره، تنبه به على أكثر المسائل، وإذا نظر فيه المنتهي تذكر به جميع الحوادث" (١٩).

وأفضل ما ذكر في فضل المختصرات ومحاسنها ومميزاتها، قول الماوردي الشافعي (ت ٤٥٠هـ): "المختصر أقرب إلى الحفظ، وأبسط للقارئ، وأحسن موقعاً في النفوس، ولذلك تداولوا إعجاز قوله عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾^(٢٠) لاختصار لفظه، وإجماع معانيه. وعجبوا من وجيز قوله

١٧- محمد بن عبد الواحد بن الهمام، التحرير، مطبوع ضمن شرحه: التقرير والتحرير، المطبعة الأميرية، بولاق، ١٣١٦هـ، مصورة: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ، ١/١١.

١٨- ابن قدامة، المغني، ٨/١، مقدمة.

١٩- أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، التنبيه، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ، مقدمة.

٢٠- سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

سبحانه وتعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (٢١). ومن اختصار قوله تعالى: ﴿يَتَأْرَضُ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَنَسَمَاءَ أَقْلَعِي﴾ (٢٢) وقالوا إنها أخصر آية في كتاب الله تعالى. واستحسنوا اختصار قوله عز وجل: ﴿وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ (٢٣). كيف جمع بهذا اللفظ الوجيز بين جميع المطعومات، وجميع الملابس! وفضل الاختصار على الإطالة قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أوتيت جوامع الكلم، واختصرت لي الحكمة اختصاراً" (٢٤). وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: "خير الكلام ما قل ودل، ولم يطل فيمّل" (٢٥).

المبحث الأول: القدوري ومكانته العلمية، وتحتة مطلبان:

المطلب الأول: ترجمة صاحب المختصر ترجمة موجزة.

المطلب الثاني: مكانته بين الفقهاء الحنفية وثناء الفقهاء عليه.

المطلب الأول: ترجمة الإمام القدوري (٢٦).

اسمه ونسبه: هو أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان.

-
- ٢١- سورة الحجر، الآية: ٩٤.
- ٢٢- سورة هود، الآية: ٤٤.
- ٢٣- سورة الزخرف، الآية: ٧١.
- ٢٤- أخرجه البخاري في صحيحه، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، ط ٤، ١٤١٠هـ، ٢٨١٥، ومسلم في صحيحه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ٥٢٣ بلفظ "بعثت". والجزء الثاني أورده السخاوي في المقاصد الحسنة، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ، ص ٢١٨، ولفظ "اختصر لي الحديث اختصاراً" أخرجه الدارقطني في سننه، عالم الكتب، بيروت، ط ٤، ١٤٠٦هـ، ٤/١٤٤؛ والبيهقي في شعب الإيمان، تحقيق: جماعة بإشراف مختار أحمد الندوي، الدار السلفية، ممباي، ط ١، ١٤٠٦هـ، ٤/٥٤.
- ٢٥- علي بن محمد الماوردي، الحاوي الكبير، تحقيق علي محمد معوض وغيره، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ، ١/١١.
- ٢٦- انظر ترجمته: أحمد بن محمد ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، تصوير دار الفكر، ٧٨/١، قاسم بن قطلوبغا المصري، تاج التراجم، تحقيق إبراهيم صالح، دار المأمون للتراث، دمشق، ط ١، ١٤١٢هـ، ص ٩٨، عبد الحي بن محمد عبد الحلیم اللكنوي، الفوائد البهية، تحقيق محمد بدر الدين النعاني، مكتبة خير كثير، الهند، ص ٣٠؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، المطبعة الإسلامية، طهران، طبعة عام ١٣٨٧هـ، ٤٦/١، ١٥٥، عبد القادر بن محمد القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ٢، ١٤١٣هـ، ١/٢٤٧-٢٥٠؛ وغيرها من كتب التراجم والتاريخ.

كنيته: أبو الحسين بن أبي بكر.

لقبه ونسبته: اشتهر بين الناس بالقدوري، وصاحب المختصر، والبغدادي. وهذه قامت مقام اللقب. ولقب بالقدوري نسبة إلى القدور - جمع قدر - . وذهب جمع من المؤرخين إلى القول: بأنه لم يعرف سبب نسبته إلى القدور، وقيل: القدوري نسبة إلى بيع القدور، أو إلى عملها، وقيل: القدور اسم محلة في بغداد يقال لها: قُدور، أو قرية من قرى بغداد يقال لها: ودورة^(٢٧) (قدورة). كما عُرِفَ بين علماء المذهب بصاحب المختصر، وهو الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه.

مولده: ولد الإمام القدوري سنة اثنتين وستين وثلاثمائة هجرية باتفاق المترجمين له. ولعل مكان مولده بغداد، إذ غفل المؤرخون للإمام عن ذكر ذلك، ولعله كان سهواً أو استغناءً بنسبته إلى بغداد أو قدور.

طلبه العلم ومشايخه:

لم يزودنا التاريخ بمعلومات كافية عن حياة القدوري العلمية، ولا بذكر مشايخه الذين أخذ عنهم منذ بداية طلبه للعلم إلى أن تبوأ المكانة العلمية العالية المرموقة بين علماء وفقهاء عصره، ولم يحدثنا القدوري عن نفسه أيضاً بالتفصيل. وكل ما وصل إلينا هو ذكر بعض من المشاهير الذين أكثر القدوري من الأخذ عنهم، والذين كان لهم الأثر في تكوين شخصيته العلمية والخلقية.

ومن أهم مشايخه:

- الفقيه الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن يحيى بن مهدي الجرجاني، الحنفي، نزيل بغداد، المتوفى سنة ٣٩٨هـ على الأرجح، أحد أعلام الحنفية الكبار^(٢٨).
- المحدث الشيخ عبيد الله بن محمد بن أحمد، أبو الحسين الشيباني، المعروف بالحوشي المتوفى سنة ٣٧٥هـ، وكان ثقة ثباتاً مستوراً أميناً، وثقه المحدثون كالخطيب البغدادي، والبرقاني والتنوشي وغيرهم^(٢٩). روى الحديث عنه الإمام أبو الحسين القدوري^(٣٠).

٢٧- انظر بالتفصيل: تاج التراجم، ص ٩٩.

٢٨- انظر: إبراهيم بن علي الشيرازي، طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ط ٢، ١٤٠١هـ، ص ١٤٥، الجواهر المضية، ١/٢٤٨.

٢٩- انظر: أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٤٢٢هـ ٤/٣٧٧، الجواهر المضية، ١/٢٤٨.

٣٠- انظر: تاريخ بغداد، ٤/٣٧٧.

بعض تلامذته:

- الفقيه أبو بكر عبد الرحمن بن محمد السرخسي المتوفى ٤٣٩هـ، صنف تكملة تجريد القدوري، ومختصر المختصرين^(٣١).
- الحافظ أحمد بن علي بن أحمد بن مهدي، أبو بكر الخطيب البغدادي المتوفى ٤٦٣هـ، المؤرخ الكبير، صاحب التصانيف الكثيرة وأحد أعيان الشافعية، المشهود له بالفضل والعلم^(٣٢).
- الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الحسين الدامغاني الكبير المتوفى ٤٧٨هـ، أحد أعيان الحنفية ببغداد في زمانه^(٣٣). برع في الفقه حتى فاق أقرانه، وانتهت إليه رئاسة مذهب أبي حنيفة في زمانه^(٣٤).

مؤلفاته:

- تُدرَك وتُعرف مكانة العالم من خلال آثاره ومؤلفاته، ومؤلفات الإمام القدوري - مع قلتها - هي الأثر الخالد لهذه الشخصية العلمية التي تشهد برسوخه في الفقه. ومن أهم مصنفاته:
- التجريد: وهو كتاب عظيم في فقه الموازنة وخاصة في مسائل الخلاف بين الحنفية والشافعية، قال أبو الوفاء عنه: "والتجريد في سبعة أسفار، اشتمل على مسائل الخلاف بين أصحابنا وبين الشافعي، شرع في إملائه سنة خمس وأربعمائة"^(٣٥).
- التقريب: في مجلد، في مسائل الخلاف بين أبي حنيفة وأصحابه، مجرداً عن الدلائل، ثم صنف التقريب الثاني فذكر المسائل بأدلتها"^(٣٦).
- شرح مختصر الكرخي: "المختصر المشهور: فنفع الله تعالى به خلقاً لا يحصون"^(٣٧)، وهو من أهم وأوسع كتب المؤلف، "وهو كتاب يجمع من فروع الفقه ما لا يجمعه غيره"، كما قال المؤلف رحمه الله تعالى في مقدمة كتابه.

٣١- انظر: الجواهر المضية، ٢/ ٣٩٧.

٣٢- انظر: تاريخ بغداد، ١٩/ ٦٠.

٣٣- انظر: المصدر السابق، ٣/ ٢٦٩.

٣٤- انظر: المصدر السابق، ٣/ ١٠٩.

٣٥- الجواهر المضية، ١/ ٢٤٨، طبع كتاب التجريد، الدكتور محمد سراج والدكتور علي جمعة في ثلاثة عشر جزءاً، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٣٦- تاج التراجم، ص ٩٩.

٣٧- الجواهر المضية، ١/ ٢٤٨. ولا زال شرح مختصر الكرخي، مخطوطاً متفرقاً بمكتبات تركيا.

- جزء في الحديث: وله "جزء من حديثه" من رواية أبي عبد الله الدامغاني عنه (٣٨).
 - أدب القاضي على مذهب الإمام أبي حنيفة (٣٩).
 - مختصر القدوري: وهو هذا الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه، وسيأتي الكلام عنه بالتفصيل.
- مناظرات القدوري:

وكانت تعقد مجالس للمناظرة بين العلماء، وبين فقهاء الحنفية والشافعية خاصة، فقد كان لإمامنا القدوري الحظ الأوفر من مجالس المناظرات، وهناك مناظرات عديدة وقعت بين القدوري وبين الإمام أبي الطيب الطبري الشافعي، والإمام أبي حامد الإسفرائيني الشافعي، وهذه الواقعات دلالة جلية على مكانة الإمام القدوري العلمية، ليس بين فقهاء مذهبه فحسب، بل بين سائر فقهاء عصره (٤٠).

وفاته:

توفي رحمه الله تعالى ببغداد، بعد عمر حافل قضاه في طلب العلم وتعليمه ونشره - في يوم الأحد، الخامس عشر من رجب، سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، ودفن من يومه في داره بدراب أبي خلف، وزاد ابن خلكان: "ثم نقل إلى تربة في شارع المنصور، ودفن هناك، بجنب أبي بكر الخوارزمي الفقيه الحنفي". وتوفي عن عمر يناهز الستة والستين. رحمه الله عزوجل رحمة واسعة.

المطلب الثاني: مكانته العلمية بين الفقهاء الحنفية:

بلغ الإمام القدوري مكانة بارزة بين فقهاء مذهبه في عصره حتى قال الحافظ الخطيب البغدادي عنه بعد أن عظم قدره وارتفع جاهه عند الحنفية: "انتهت إليه بالعراق رئاسة مذهب أبي حنيفة" (٤١). وقال أبو إسحاق الشيرازي: "وكان أبو الحسين البغدادي المعروف بالقدوري، إمام مذهب أبي حنيفة في عصرنا" (٤٢). وقال ابن كثير: "كان إماماً بارعاً، وثبتاً مناظراً... وهو صاحب المختصر الذي يُحفظ" (٤٣).

-
- ٣٨- انظر: المصدر السابق، ١/ ٢٤٩.
 - ٣٩- كما ذكره إسماعيل باشا بن محمد أمين البغدادي في هدية العارفين، المطبعة الإسلامية، طهران، تصوير: دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢ هـ، ٥/ ٧٤.
 - ٤٠- انظر: وفيات الأعيان، ١/ ٧٣، والفوائد البهية، ص ٣٠.
 - ٤١- تاريخ بغداد، ٤/ ٣٧٧.
 - ٤٢- طبقات الفقهاء، ص ١٢٤.
 - ٤٣- إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٤١٧ هـ، ١٢/ ٢٦.

كما جعله فضلاء الحنفية الذين قسموا طبقات الفقهاء الحنفية من طبقة أصحاب الترجيح: "الطبقة الخامسة: طبقة أصحاب الترجيح من المقلدين كأبي الحسين القدوري، وصاحب الهداية وأمثالهما، وشأنهم تفضيل بعض الروايات على بعض آخر بقولهم: هذا أولى وهذا أصح رواية، وهذا أرفق للناس" (٤٤).

وهذا بحسب تقسيم ابن كمال باشا، حيث قسمهم إلى سبع طبقات، فأذكر بقية الطبقات كما دُكر، حيث تداولته الفقهاء بعده بالقبول والرفض، والأخذ والرد:

الطبقة الأولى: طبقة المجتهدين في الشرع، كالأئمة الأربعة أو من سلك مسلكهم في تأسيس قواعد الأصول واستنباط الأحكام والفروع من الأدلة الأربعة من غير تقليد لأحد في الفروع ولا في الأصول، وهي الطبقة العليا من طبقة المجتهدين.

الطبقة الثانية: طبقة المجتهدين في المذهب، كتلاميذ أصحاب الطبقة الأولى: كأبي يوسف ومحمد لأبي حنيفة، وكالمزني والبويطي للشافعي، فمسلكهم استخراج الأحكام من أدلتها الشرعية على مقتضى القواعد التي قررها مشايخهم، وإن خالفوهم في بعض أحكام الفروع، فلا يخرجون من اتباع مشايخهم في قواعد الأصول، وهي الطبقة الوسطى من طبقات الاجتهاد.

الطبقة الثالثة: طبقة المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب، وهم: كالخفاف، والطحاوي، وأبي الحسن الكرخي، وشمس الأئمة الحلواني، وشمس الأئمة السرخسي، وفخر الإسلام البزدوي، وفخر الدين قاضيخان، وأمثالهم من أئمة الحنفية، ومن في طبقتهم من أئمة الشافعية والمالكية، وغيرهم من الأئمة المعارضين في المذهب، فإنهم لا يقدرّون على مخالفة شيوخهم لا في الأصول ولا في الفروع، لكنهم يستنبطون الأحكام في المسائل التي لا نص فيها عنهم على حسب أصولهم ومقتضى قواعدهم، هي الطبقة السفلى من طبقات الاجتهاد.

الطبقة الرابعة: طبقة أصحاب التخريج من المقلدين كالرازي وأضرابه؛ فإنهم لا يقدرّون على الاجتهاد أصلاً، لكنهم لإحاطتهم بالأصول وضبطهم للمآخذ يقدرّون على تفصيل قول مجمل ذي وجهين، أو حكم مبهمٍ محتملٍ لأمرين منقول عن صاحب المذهب أو عن أحد من أصحابه المجاهدين برأيهم ونظرهم في الأصول والمقايسة على أمثاله ونظرائه من الفروع، كما وقع في بعض المواضع من الهداية من قوله: "كذا في تخريج الكرخي وتخريج الرازي" من هذا القبيل .

٤٤- تقي الدين بن عبد القادر التميمي، الطبقات السنوية، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلوي، دار الرفاعي، الرياض، ط ١،

١٤٠٣هـ، ص ٤١، ٤٢.

الطبقة الخامسة: طبقة أصحاب الترجيح من المقلدين كأبي الحسين القدوري، وصاحب الهداية وأمثالهما، وشأنهم تفضيل بعض الروايات على بعض آخر بقولهم: هذا أولى، وهذا أصح، وهذا أرفق للناس.

الطبقة السادسة: طبقة المقلدين القادرين على التمييز بين الأقوى، والقوي والضعيف، وظاهر الرواية والرواية النادرة، كأصحاب المتون المعتمدة من المتأخرين، مثل صاحب الكنز، وصاحب المختار، وصاحب الوقاية، وصاحب المجمع، وشأنهم أنهم لا ينقلون في كتبهم الأقوال المردودة، والروايات الضعيفة.

الطبقة السابعة: طبقة المقلدين الذين لا يقدرّون على التمييز المذكور، ولا يفرقون بين الغث والسمين، ولا يميزون الشمال عن اليمين، بل يجمعون ما يجدون كحاطب الليل، فالويل لهم ولمن قلدهم كل الويل (٤٥).

قد اختلفت أقوال فقهاء الحنفية حول هذا التقسيم: فمنهم من اعتمده وأيده مثل طاش كبري زاده (ت ٩٦٨هـ) في طبقات الفقهاء (٤٦)، والتميمي (ت ١٠١٠هـ) في الطبقات السنية ووصفه "بأنه تقسيم حسن جداً" (٤٧)، وابن عابدين (ت ١٢٥٢هـ) في رد المحتار (٤٨) وغيرهم.

وانتقد هذا التقسيم مجموعة أخرى من الحنفية، منهم: شهاب الدين المرجاني (ت ١٣٠٦هـ) فقال معلقاً على قول التميمي (هو تقسيم حسن جداً): "أقول: بل هو بعيد عن الصحة بمراحل، فضلاً عن حسنه جداً، فإنه تحكّات باردة وخيالات فارغة... ولا سلف له في ذلك المدعى، ولا سبيل له إلى تلك الدعوى، وإن تابعه من جاء من عقبه من غير دليل يتمسك به وحنة تلجيه، ومهما ساعدناهم فيكون الفقهاء والمتفكّة على هذه المراتب السبع، وهو غير مسلم لهم، فلا يتخلصون من فحش الغلط والوقوع في الخطأ المفرط في تعيين رجال الطبقات وترتيبهم على هذه الدرجات" (٤٩).

وتبع المرجاني على تضعيف وتوهين تقسيم التميمي عبداً الحي اللكنوي (١٣٠٤هـ) في بعض مؤلفاته (٥٠)، ومحمد بن خيت المطيعي (١٣٥٤هـ) في إرشاد أهل الملة إلى إثبات الأئمة (٥١)، ومحمد زاهد

٤٥- المصدر السابق، ص ٤١، ٤٢؛ حاشية ابن عابدين، دار الثقافة والتراث، ٢٥٣/١ وما بعدها.

٤٦- انظر: أبو الخير أحمد بن مصطفى طاش كبري زاده، طبقات الفقهاء، مطبعة نينوى، الموصل، ط ١، ١٩٥٤م، ص ٧-١١.

٤٧- الطبقات السنية، ٣٢/١، ٣٤.

٤٨- حاشية ابن عابدين، ٢٥٣/١.

٤٩- هارون بن بهاء الدين المرجاني، ناظورة الحق، مطبوع في قزان (البلغار القديم) سنة ١٢٨٧هـ، ص ٥٨.

٥٠- انظر: الفوائد البهية، ص ٧، أبو الحسنات عبد الحي بن محمد عبد الحليم اللكنوي، عمدة الرعاية، مطبوعة بهامش

شرح الوقاية للمحبوبي، طبعة المطبع اليوسفي، الهند، ١٣٢٦هـ، (نسخة مصورة)، ص ٨، ٩.

٥١- انظر: مفتي محمد بن خيت المطيعي، إرشاد أهل الملة إلى إثبات الأئمة، مطبعة كردستان العلمية، مصر، ١٣٢٩هـ

ص ٣٦٥ وما بعدها.

الكوثري (١٣٧١هـ) في حسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي^(٥٢)، وكلهم انتقدوا هذا المسلك في تقسيم طبقات فقهاء الحنفية، واعتمدوا في الرد على قول المرجاني، كما سبق. كما انتقد هذا التقسيم الشيخ محمد أبو زهرة (١٣٩٤هـ) وناقش كل طبقة على حدة، ثم رجح أن تكون طبقات الفقهاء على خمس طبقات:

- وقال عن الطبقة الخامسة (طبقة إمامنا القدوري): "إن التفرقة بين هذه الطبقة وسابقتها ليست واضحة، وإنه لكي تكون الأقسام متميزة غير متداخلة يجب حذف طبقة من هذه الطبقات الثلاث هي: الثالثة، والرابعة، والخامسة، واعتبارهما طبقتين اثنتين"^(٥٣).

- فجعل الطبقة الأولى: هم المجتهدون المطلقون: هم أبو حنيفة وأصحابه. الطبقة الثانية: طبقة المخرجين الذين يستخرجون أحكاماً لمسائل لم تؤثر لها أحكام من أصحاب المذهب الأولين بالبناء على قواعد المذهب.

الطبقة الثالثة: "طبقة المرجحين الذين يرجحون بين الروايات المختلفة، والأقوال المختلفة، فيبينون أقوى الروايات، ويميزون أصح الأقوال وأوفقها للقياس أو أرفقها بالناس". واعتبر أبو زهرة الطبقات الثلاث الأولى من المجتهدين، وقال: "الطبقات الثلاث الأولى من المجتهدين، سواء كان اجتهادهم مطلقاً، أم اجتهادهم في المذهب".

وقال معللاً سبب ذلك: "فلما غلق باب الاجتهاد وارتضى فقهاء المذهب الحنفي ذلك التعليق، كما ارتضاه غيرهم من فقهاء المذاهب الأربعة لم يعد لأحد حق الترجيح، بل ليس للمفتي أو القاضي إلا تعرف الراجح والبحث عنه"^(٥٤).

- كما انتقد المرجاني ومن تبعه كل طبقة من طبقات ابن كمال باشا، فقالوا عن الطبقة الثانية: اعتبر ابن كمال باشا أصحاب الإمام أبي حنيفة، أمثال أبي يوسف ومحمد رحمهم الله تعالى من مقلديه في قواعد الأصول، وإن خالفوه في بعض أحكام الفروع. فقالوا: إن كان المراد بقواعد الأصول: أدلة الشرع المعروفة: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، فهي مستند كل مجتهد، ومرجع كل إمام، ولا يعتبر أحد مقلداً لغيره في الاعتماد عليها والاستناد إليها.

٥٢- انظر: محمد زاهد الكوثري، حسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ص ٢٩ وما بعدها.

٥٣- محمد بن أحمد أبو زهرة، أبو حنيفة: حياته وعصره - آراؤه وفقهه، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، ص ٤٤٧.

٥٤- المصدر السابق، ص ٤٤٩.

وهكذا فنَدوا كل الاحتمالات الواردة، ثم قالوا: إن هؤلاء الأئمة: أبا يوسف ومحمداً، وأمثالهما من أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمهم الله تعالى، قد بلغوا درجة الاجتهاد المطلق، شأنهم في ذلك شأن الأئمة مالك والشافعي وأحمد، وغيرهم من الأئمة المجتهدين رحمه الله تعالى، ومخالفتهم للإمام أبي حنيفة في الأصول غير قليلة، فضلاً عن أحكام الفروع وجزئيات مسائل الفقه (٥٥).

وتعقب هذا الفريق تقسيم ابن كمال باشا طبقة طبقة، وفندوا جميع علل ابن كمال باشا في مسلكه، وأترك ذكرها خشية الإطالة. وقالوا عن الطبقة الخامسة - كما نقل النقيب - بأن كمال باشا جعل أبا الحسين القدوري رحمه الله صاحب المختصر المعروف، والمرغيناني رحمه الله صاحب الهداية من الطبقة الخامسة (أصحاب الترجيح من المقلّدين)، بينما وضع قاضيخان رحمه الله في الطبقة الثالثة (المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب). وقد جانبَ رحمه الله في ذلك الصواب، فإن القدوري المتوفى سنة ٤٢٨هـ أقدم زماناً من قاضيخان المتوفى سنة ٥٩٢هـ، وأعلى منه كعباً، وأطول باعاً في العلم (٥٦)، وقد "كان ممن أنجب في الفقه لذكائه، وانتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة، وعظم عندهم قدره وارتفع جاهه ... صنّف من الكتب المختصر المشهور، فنفع الله به خلقاً لا يحصون" (٥٧)، وقد كتب الله لمختصره هذا من الشهرة والقبول ما لا يخفى على طلبة العلم. كما أن صاحب الهداية المتوفى سنة ٥٩٣هـ، المعاصر لقاضيخان أيضاً من جهابذة فقهاء المذهب الحنفي، أقرّ له أهل عصره أمثال زين الدين العتّابي وقاضيخان بالفضل والتقدّم، وقد فاق أقرانه، بل شيوخه، وأذعن له الجميع في حياته، ولا سيما بعد تصنيفه الهداية وكفاية المنتهي. فكيف ينزل شأنه وشأن القدوري عن الإمام قاضيخان بمراتب؟! فيعدّان من المقلّدين، ويعدّ هو من المجتهدين، مع أنها أحق منه بالاجتهاد، وأثبت في أسبابه، وألزم لأبوابه (٥٨).

٥٥ - انظر: ناظورة الحق، ص ٥٨، ٥٩؛ عمدة الرعاية، ص ٨، شاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، تحقيق عبد الفتاح أبي غدة، دار النفائس، بيروت، ط ٣، ١٤٠٦هـ، ص ٤٠. انظر بالتفصيل: المذهب الحنفي، لأحمد النقيب ١٦٣/٢ وما بعدها.

٥٦ - انظر: ناظورة الحق، ص ٦٣، عمدة الرعاية، ص ٩، مفتي محمد بن بخيت المطيعي، إرشاد أهل الملة، مطبعة كردستان العلمية، مصر، طبعة عام ١٣٢٩هـ، ص ٣٧٦.

٥٧ - الجواهر المضية، ١/٢٤٨.

٥٨ - انظر: عبد الحي بن عبد الحليم اللكنوي، التعليقات السننية، دار الأرقم، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٤١، عمدة الرعاية، ص ٩، ناظورة الحق، ص ٦٣، إرشاد أهل الملة، ص ٣٧٦، ٣٧٧، أحمد بن محمد النقيب، المذهب الحنفي، مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١٤٢٢هـ، ص ١٨١، ١٨٢.

وهناك تفسير آخر لهذا التقسيم وهو ما يراه المفتي محمد تقي العثماني (معاصر) (٥٩)، وهو: أن مراتب الطبقات، التي سبق ذكرها في هذا التقسيم، أقسام وظائف الفقهاء، لا الفقهاء أنفسهم، وهي بالتالي أنواع ومراتب تقبل التداخل، ولا تباين بينها، ولذلك يمكن أن يتصف فقيه واحد بأكثر منها، كأن يكون من أصحاب التخريج وأصحاب الترجيح معاً مثلاً؛ لقيامه بكل من التخريج والترجيح، وعليه فلا حرج في ذكر بعض الفقهاء في طبقة دون أخرى؛ لجواز أن يكون من هذه وتلك بجهتين مختلفتين، ونظير ذلك وصف الإمام الطحاوي رحمه الله مثلاً بالفقيه، فهذا لا يعني أنه ليس محدثاً، وقس على ذلك (٦٠).

وهذا التوجيه له مسوغ مقبول من جانب، ويشهد له تقسيم ابن كمال حين ذكر الكرخي في الطبقة الثالثة ثم كرّر ذكره في آخر الطبقة الرابعة، إلا أن قول ابن كمال في الطبقة السادسة: "وشأنهم أن لا ينقلوا في كتبهم الأقوال المردودة والروايات الضعيفة" يلغي الاحتمال ويؤكد أن هؤلاء الفقهاء أهل تلك الطبقة عنده دون غيرها من الطبقات التي فوقها. وهناك تقسيمات آخر لطبقات الفقهاء مثل تقسيم الدهلوي إلى ثلاث طبقات في الإنصاف، ولكنها عامة، ومن ثم لم يأبه بها الفقهاء كثيراً (٦١).

ومن خلال هذا العرض حول تقسيم طبقات الفقهاء لابن كمال باشا، ثم مناقشته بل وتفنيده من قبل معارضيه يظهر: أن إمامنا القدوري - بما له من باع طويل، وكعب عالٍ في الأصول والفروع، يستحق أن يتبوأ طبقة المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب.

المبحث الثاني: منهج القدوري في مختصره ومقارنته ببعض المختصرات. وتحته ثلاث مطالب:

المطلب الأول: الكتب (التون والمختصرات) المعتمدة في المذهب الحنفي.

المطلب الثاني: مكانة القدوري في المذهب وثناء واهتمام العلماء به وعناية الفقهاء بالمختصر المبارك.

المطلب الثالث: منهج القدوري في مختصره ومقارنته ببعض المختصرات.

٥٩- هو محمد تقي بن محمد شفيق بن محمد ياسين العثماني، من كبار علماء الحنفية في العصر الحاضر، ويعمل الآن مفتياً ومدرساً بجامعة دار العلوم في كراتشي ونائباً لرئيسها، إلى جانب العضوية في مجمع الفقه الإسلامي بجدة، والمجلس الأعلى للقضاء في باكستان، وعدد من الهيئات في الداخل والخارج. انظر: محمد تقي عثماني، السيرة الذاتية، جامعة دار العلوم، كراتشي، ص ١-٣، إبراهيم السامرائي، علماء العرب في شبه القارة الهندية، وزارة الأوقاف العراقية، ١٩٨٦م، ص ٨٤٦.

٦٠- انظر: محمد تقي العثماني، أصول الإفتاء، جامعة دار العلوم، كراتشي، ص ٢٤، ٢٥.

٦١- انظر: الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، ص ٨٠، ٨١، المذهب الحنفي، ص ١٨٧ وما بعدها.

المطلب الأول: الكتب (المتون والمختصرات) المعتمدة في المذهب:

إن عمدة المذهب الحنفي في نقل المذهب هي الكتب المعتمدة التالية: كتب ظاهر الرواية: الكتب الستة التي ألفها الإمام محمد بن الحسن الشيباني ت ١٩٠هـ، ويعنى بكتب محمد الستة: "المبسوط، والزيادات، والجامع الصغير، والسّير الصغير، والجامع الكبير، والسّير الكبير، وإنما سميت بظاهر الرواية؛ لأنها رُويت عن محمد بروايات الثقات، فهي ثابتة عنه، إما متواترة أو مشهورة عنه" (٦٢). وهذه الكتب هي بمثابة أصول المذهب، وجمعت هذه الكتب في كتاب الكافي للحاكم الشهيد (ت ٣٣٤هـ)؛ حيث جمع فيه مسائل كتب محمد بن الحسن ظاهر الرواية مع إسقاط المتكرر. ومن ثمّ لقي الكافي الكثير من التقدير والاعتقاد تبعاً لأصوله، ومن شروحه التي نالت الثقة والاعتقاد كتاب المبسوط للإمام أبي بكر محمد بن أحمد السرخسي ت ٤٨٣هـ، المشهور والمتداول إلى هذا الزمان. إذ "لا يعمل بها بخالفه ولا يركن إلا إليه، ولا يفتى ولا يعول إلا عليه" (٦٣).

وفي هذا القرن (الرابع الهجري) ظهرت عدة مختصرات بعد الكافي للحاكم، منها: مختصر الطحاوي لأحمد بن سلامة أبي جعفر الطحاوي ٣٢١هـ صاحب العقيدة الشهيرة. قال محققه: "إنه أول المختصرات في مذهبنا، وأبدعها وأحسنها تهديماً، وأصحها رواية عن أصحابنا، وأقواها دراية، وأرجحها فتوى... (٦٤)". ومختصر الكرخي: أبي الحسن عبيد الله بن الحسين الكرخي ٣٤٠هـ. وقد قال عنه القدوري في مقدمة شرحه لهذا المختصر "... حال مختصر الشيخ أي الحسن الكرخي رحمة الله عليه، والحاجة إلى شرحه، وهو كتاب يجمع من فروع الفقه ما لا يجمعه غيره، وقد كان أبو علي الشاشي رحمه الله يقول: "من حفظ هذا الكتاب فهو أحفظ أصحابنا، وهو كتاب مختلف الترتيب... (٦٥)".

٦٢- حاشية ابن عابدين، ١/٢٢٦.

٦٣- محمد إبراهيم بن أحمد علي، المذهب عند الحنفية، جامعة الملك عبد العزيز، ١٤١١هـ، ص ٩٢.

٦٤- أحمد بن محمد الطحاوي، مختصر الطحاوي، تحقيق أبي الوفاء الأفعاني، مطبعة دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٧٠هـ، ص ٤، وشرحه الإسيبيجاوي، والخصاص، وقد طبع شرح الخصاص بتحقيق سائد بكداش ورفقائه في ثمانية أجزاء، بدار البشائر الإسلامية ببيروت.

٦٥- لازال مخطوطاً، حيث شرحه القدوري في مجلدات كثيرة، وقال عن هذا الشرح والشارح صاحب غاية البيان شارح الهداية: "والشيخ أبو الحسين القدوري رحمه الله بحر زخار في الفقه، وغيث مدرار في الحديث، وناهيك من الدليل على غزارة علمه شرحه لمختصر الكرخي رحمه الله تعالى، فإذا طالعه عرفت أن محله في الفقه... لا تناله يد كل أحد...". محمود بن أحمد العيني، البناية، طبعة باكستان، ١٢٦/٥.

وفي القرن الخامس: ألف القدوري مختصره المشهور، والذي نافس كتب محمد بن الحسن، والكافي، ومختصر الطحاوي، ومختصر الكرخي منافسة كبيرة في اهتمام العلماء به حفظاً وتدریساً وشرحاً، وخاصة التزامه بذكر ما عليه الاعتقاد في المذهب، حتى نسي الناس سائر المختصرات، وسيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل. وقال اللكنوي حين ذكر المختصرات المعتمدة في المذهب (عن هذه المختصرات): "ألفها جمع من الأئمة وكبار الفقهاء المعروفين بالعلم والزهد والفقہ، والثقة في الرواية، كأبي جعفر الطحاوي والكرخي والحاكم الشهيد والقدوري..." (٦٦).

وفي القرن السابع: وهو عصر الاهتمام بتدوين العلوم في المتون بشتى فنون، اهتم فقهاء هذا القرن بتأليف المتون المعتمدة في المذهب الحنفي. وكتب المتون المعتمدة: هي المختصرات التي ألفها الحذاق من علماء المذهب الكبار، المشتهرين بالتمحيص والتدقيق .

وما صححته هذه المتون هو قمة الآراء المعتمدة الراجحة عندهم. قال العلامة ابن عابدين: "إن المتون موضوعة لنقل ما هو المذهب فلا يعدل عما فيها"، كما "أن ما في المتون مقدم على ما في الشروح، وما في الشروح مقدم على ما في الفتاوى" (٦٧). وحصل هذا الاعتقاد والتحويل على المتون المعتمدة، إذ كان "مصنفوها يميزون بين الراجح والمرجوح والمقبول والمردود، والقوي والضعيف، فلا يوردون في متونهم إلا الراجح المقبول القوي" (٦٨).

ومن ثم اهتم فقهاء الحنفية قديماً وحديثاً بتلقيح النشء وتحفيظهم تلك المتون التي نالت من الثقة والتقدير ما نالت، وقد ذكر اللكنوي: أن اعتماد المتأخرين قد كثر على: الوقاية (٦٩)، والكنز (٧٠)، والمختار (٧١)، ومختصر القدوري، وذلك لما علموا من جلاله مؤلفيها، والتزامهم إيراد مسائل معتمد عليها وأشهرها ذكراً وأقواها اعتماداً: الوقاية، والكنز، ومختصر القدوري، وهي المراد بقولهم: المتون الثلاثة، وإذا

٦٦- اللكنوي: عمدة الرعاية، ص ١٠.

٦٧- حاشية ابن عابدين، ١/ ٢٣٥.

٦٨- اللكنوي، الفوائد البهية، ص ١٠٧.

٦٩- وقاية الرواية في مسائل الهداية؛ لتاج الشريعة، محمود بن أحمد، المحبوبي رحمه الله (ت ٦٧٣هـ).

٧٠- كنز الدقائق لأبي البركات، حافظ الدين، عبد الله بن أحمد، النّسفي، الحنفي رحمه الله، صاحب التفسير، والمنار في الأصول.

٧١- المختار للفتوى، لأبي الفضل مجد الدين عبد الله بن محمود، الموصلي رحمه الله ت ٦٨٣هـ.

أطلقوا المتون الأربعة أرادوا: هذه الثلاثة والمختار، أو مجمع البحرين^(٧٢)، وقد ذكر العلامة ابن عابدين أهم المتون المعتمدة في المذهب فقال: "المتون المعتمدة: كالبداية، ومختصر القدوري، والمختار، والنقاية، والوقاية، والكنز، والملتقى، فإنها الموضوعة لنقل المذهب"^(٧٣). إلا أن بعض هذه المتون لقيت من القبول والثقة والاعتماد أكثر مما لقيه البعض الآخر تبعاً لاختلاف العصور والأقطار.

وقالوا: "العبرة بما فيها عند تعارض ما فيها وما في غيرها، لما عرفوا من جلاله قدر مؤلفيها، والتزامهم إيراد مسائل ظاهر الرواية، والمسائل التي اعتمد عليها المشايخ"^(٧٤) إذ القاعدة المعروفة لدى فقهاء الأحناف في ترجيح الأقوال المعتمدة والمعتمدة في المذهب، وتقديم بعض الكتب على البعض الآخر عند التعارض، أنه: "إذا تعارض ما في المتون وما في غيرها من الشروح والفتاوى، فالعبرة لما في المتون، ثم للشروح المعتمدة، ثم للفتاوى، إلا إذا وجد التصحيح ونحو ذلك في ما من الشروح والفتاوى ولم يوجد ذلك في المتون، فحينئذ يقدم ما في الطبقة الأدنى على ما في الطبقة الأعلى".

ووضح هذه القاعدة وبينها ابن عابدين في ردّ المختار بقوله: "صرحوا أن ما في المتون مقدم على ما في الشروح، وما في الشروح مقدم على ما في الفتاوى، لكن هذا عند التصريح بتصحيح كل من القولين، أو عدم التصريح أصلاً، أما لو ذكرت مسألة في المتون ولم يصرحوا بتصحيحها، بل صرحوا بتصحيح مقابلها، فقد أفاد العلامة قاسم ترجيح الثاني؛ لأنه تصحيح صريح، وما في المتون تصريح التزامي، والتصحيح الصريح مقدم على التصحيح الالتزامي، أي: التزام المتون ذكر ما هو الصحيح في المذهب"^(٧٥).

المطلب الثاني: مكانة مختصر القدوري في المذهب وعناية الفقهاء به:

من أهم المتون الأربعة: مختصر القدوري كما مر، وقد ذاع صيت هذا المختصر في الآفاق، وعرف قبوله لدى فقهاء الحنفية، وتقديمه على سائر الكتب المعتمدة في المذهب، حتى إذا أطلق عند الحنفية اسم "الكتاب" فإنه لا ينصرف إلا إليه، ووصفه الآخرون بالمشهور والمبارك، كل ذلك لجلاله قدره، وعلو شأنه وانتفاع الخلق به، والثقة بمؤلفه. وقد كتب الله عز وجل لهذا المختصر من القبول أمراً عظيماً حتى يكاد لا يلتفت إلى سواه من الكتب، إلا إذا نسب إليه باعتبار التكملة، أو توضيح المشكلات منه، كما يقول

٧٢- مجمع البحرين وملتقى النيرين، لمظفر الدين أحمد بن علي الساعاني رحمه الله ت ٦٩٤هـ.

٧٣- محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز، شرح عقود رسم المفتي، مكتبة مير محمد، كراتشي، باكستان، الطبعة الثانية، ص ٣٦، ٣٧.

٧٤- أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، الجامع الصغير، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ، ص ٢٣.

٧٥- حاشية ابن عابدين، ١/ ٢٣٥.

العلامة علاء الدين محمد بن أحمد السمرقندي ٥٣٩هـ في مفتاح كتابه تحفة الفقهاء: "اعلم أن المختصر المنسوب إلى الشيخ أبي الحسين القدوري رحمه الله تعالى، جامع جماً من الفقه مستعملة؛ بحيث لا تراها مدى الدهر مهملة، يهدي بها الرائي في أكثر الحوادث والنوازل، ويرتقي بها الرائي إلى أعلى المراقي والمنازل، ولما جمعت رغبة الفقهاء إلى هذا الكتاب، طلب مني بعضهم من الإخوان والأصحاب أن أذكر فيه بعض ما ترك المصنف من أقسام المسائل، وأوضح المشكلات منه بقوي من الدلائل؛ ليكون ذريعة إلى تضعيف الفائدة... "(٧٦).

وقال الإمام أبو الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني ٥٩٣هـ في مقدمة كتابه بداية المبتدي الذي شرحه في الهداية: "وكان يخطر ببالي عند ابتداء حالي أن يكون كتاب في الفقه، فيه من كل نوع، صغير الحجم كبير الرسم، وحيث وقع الاتفاق بتطواف الطرق، وجدت المختصر المنسوب إلى القدوري أجمل كتاب في أحسن إيجاز وإعجاب، ورأيت كبراء الدهر يرغبون الصغير والكبير في حفظه الجامع، فهممت أن أجمع بينهما، ولا أتجاوز فيه عنهما إلا ما دعت الضرورة إليه، وسميته بداية المبتدي"(٧٧).

وقال الإمام حسام الدين الرازي علي بن أحمد ٥٩٨هـ في مقدمة كتابه تكملة القدوري: "أما بعد: فإن على اللاحق إذا عجز عن إدراك شأن السابق، أن يشق غباره، أو يرفق بالعين آثاره، والشيخ الإمام أبو الحسين البغدادي القدوري رحمة الله عليه ألف مختصراً برز في تصنيفه، وجود في ترتيبه وتصنيفه، وأغنى به مع وجازة لفظه، وجزالة المعنى مع كثرة المسائل والإيحاء إلى الدلائل؛ حيث لا غنية للمبتدي عن دراسته وقراءته، ولا مندوحة للمتتبعي عن مراجعته ومطالعته، فمن طمع أن يأتي بمثله كان أطمع من أشعب، وأعجز من ثعلب"(٧٨).

وقال العلامة أبو عبد الرحمن عمر بن دانشمند ٨٠٠هـ تقريباً في مقدمة شرحه على القدوري: "إن كتاب القدوري قد تهاج به الطالبون، وتفاخر به الراغبون، حتى صار عمدة بينهم، ومفخرة في مجالسهم، فلم يزالوا مشغولين به في كل زمان، ويتدرسونه في كل مكان؛ وذلك لكونه أجمل كتاب في الإيجاز وأشمله على مختار الفتوى... "(٧٩).

٧٦- علاء الدين محمد بن أحمد السمرقندي، تحفة الفقهاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ، ص ١، ٢.

٧٧- من مقدمة مختصر القدوري، مكتبة البشرية، كراتشي، باكستان، ص ٥.

٧٨- عبد الغني بن طالب الميداني، اللباب في شرح الكتاب، تحقيق سائد بكداش، دار البشائر الإسلامية، ١٤٣١هـ.

٧٩- أبو عبد الرحمن عمر بن دانشمند، شرح مختصر القدوري، نسخة من المخطوط بمكتبة حفيد أفندي، اسطنبول،

برقم: ٧٦، مقدمة.

وقال الميداني ١٢٩٨ هـ في مقدمة كتاب اللباب: "... وهكذا اتفقت كلمة علماء المذهب وغيرهم على أن مختصر القدوري كتاب مبارك، وأنه قد شاعت بركته حتى صارت كالعلم الضروي؛ ولذا عكفت الطلبة على تفهمه وتفهيّمه، وازدهموا على تعلمه وتعليمه، وكنت ممن عكف عليه الأيام الكثيرة..." (٨٠).

وقال طاش كبري زاده ١٠٣٠ هـ: "اعلم أن هذا المختصر مما تبرّك به العلماء، حتى جربوا قراءته أوقات الشدائد وأيام الطاعون" (٨١). ويقول عنه حاجي خليفة: "وهو متن متين معتبر، متداول بين الأئمة الأعيان وشهرته تغني عن البيان" (٨٢). وأثنى عليه الشيخ عبد الحميد اللكنوي ١٣٥٣ هـ بقوله: "كأنه بحر زاخر، وغيث ماطر، جامع صغير، ونافع كبير، أحسن متون الفقه وأفضلها وأتمها فائدة وأكملها، طارت عليه رياح القبول، وصار متداولاً بين العلماء الفحول؛ حتى اشتهر في الأمصار والأعصار كالشمس على رابعة النهار" (٨٣).

وقد رأينا من ثناء العلماء عامة وفقهاء الحنفية خاصة على هذا الكتاب، مما لم نر في كتاب آخر، ولم نر أيضاً كتاباً بلغ من التقدير هذا الشأن، مثل ما بلغ المختصر المبارك، وإنما حصل هذه الثقة والقبول لمكانة المؤلف رحمه الله تعالى بين طبقات فقهاء الحنفية، وخاصة بين أصحاب المتون المذكورة فقد تبوأ الطبقة الخامسة في طبقات ابن كمال باشا، ولم يرض المحققون من الحنفية إلا استحقاقه بأن يكون من أصحاب التخريج من طبقة المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب. كما وضحت ذلك آنفاً بالتفصيل، بينما سائر أصحاب المتون الأخرى من الطبقة السادسة أي طبقة المقلدين.

عناية فقهاء الحنفية بالمختصر المبارك:

ما كان ليبلغ الكتاب هذا المبلغ من الثناء والتقدير الجليل لدى الفقهاء، لولا سهولة عبارة مختصر القدوري، ومكانة مؤلفه، والتزامه بذكر ما عليه الاعتماد في المذهب؛ حتى توارث فقهاء الأحناف الاهتمام بهذا المختصر اهتماماً بالغاً لم يظهر في أيّ كتاب من الكتب الفقهية في المذهب، وبرز ذلك الاهتمام بإقراءه وتحفيظه للصغار، ووجوده في أغلب مكاتب ومدارس العالم، وبما قام الفقهاء اللاحقون للمؤلف

٨٠- اللباب بشرح الكتاب، مقدمة.

٨١- أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبري زاده، مفتاح السعادة، تحقيق: كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ٢٠٥٤/٢.

٨٢- انظر: كشف الظنون، ١٦٣١/٢.

٨٣- عبد الحميد بن عبد الحلیم اللكنوي، الحل الضروي لمختصر القدوري، مطبوع بهامش مختصر القدوري، نشر نور محمد، أصح المطابع، كراتشي، باكستان، ص ٢.

بالشرح - مطوّلة ومتوسطة ومختصرة - وبالتعليقات والحواشي عليه بالترجيح والتصحيح والتخريج لمسائله، وكان اهتمامهم به اهتماماً فاق اهتمامهم بسائر الكتب الفقهية في المذهب الحنفي، وبلغت الشروح والتعليقات على المختصر المبارك مبلغاً كبير العدد، وهذه بعضها:

- إسماعيل بن الحسين البيهقي ت ٤٠٢ هـ في الكفاية.
- أبو نصر أحمد بن محمد بن محمد الأقطع، تلميذ القدوري ت ٤٧٤ هـ، وقد قام الإمام القاسم بن عبد الله بن قطلوبغا ت ٨٧٩ هـ بشرح غريب أحاديث هذا الشرح في غريب الأحاديث المذكورة في شرح مختصر القدوري للأقطع (٨٤).
- علي بن محمد البزدوي ت ٤٨٢ هـ.
- خواهر زاده محمد بن الحسين أبو بكر البخاري ت ٤٨٣ هـ في شرح مشكلات القدوري وفوائد القدوري (٨٥).
- عبد الرب بن منصور الغزنوي ت ٥٠٠ هـ في ملتصق الإخوان (٨٦).
- جمال الدين أبو سعيد المطهر بن الحسن بن سعيد بن علي بن بندار اليزدي ت ٥٩١ هـ في اللباب (٨٧).
- علي بن أحمد بن مكّي الرازي حسام الدين ت ٥٩٨ هـ في خلاصة الدلائل في تنقيح المسائل، وعلى هذا الشرح ثلاث تعاليق لابن صبيح أحمد بن عثمان التركماني ت ٧٤٤ هـ، الأولى: في حل مشكلاته، والثانية: فيها أهمله من المسائل، والثالثة: في أحاديثه والكلام عليها. مطبوع (٨٨).
- محمد بن إبراهيم الرازي النوري ت ٦١٥ هـ.
- أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الكريم الموصلي ت ٦٢٨ هـ، ولم يتمه.
- محمد بن رسول الموقاني ت ٦٤٤ هـ في البيان (٨٩).

-
- ٨٤- وله نسخة في الظاهرية بدمشق والتي نسخها ٨٤٧ هـ. انظر: الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمان، ١٤٢١ هـ، ٤٥٥/٥.
 - ٨٥- وله نسخة في حسني باشا باسطنبول (٤٢١) ونسخة في نافذ باشا باسطنبول (٢٧٤).
 - ٨٦- وله نسخة في مراد ملا بتركيا (٩٠٩). انظر: الفهرس الشامل، ٣٢٥/١٠.
 - ٨٧- كما ذكر صاحب كشف الظنون، ٥٦٢/١.
 - ٨٨- طبع الكتاب في مجلدين بتحقيق أبي الفضل الدماطي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ.
 - ٨٩- كما في كشف الظنون، ١٦٣٢/٢.

- نجم الدين مختار بن محمود الزاهدي ت ٦٥٨ هـ في المجتبى (٩٠).
- حميد الدين علي بن محمد بن علي الضرير الرامثي البخاري ت ٦٦٧ هـ في الفوائد البدرية (٩١).
- إبراهيم بن عبد الرزاق بن خلف الرسعني المعروف بابن المحدث ت ٦٩٥ هـ، ولم يتمه.
- رشيد الدين أبو عبد الله محمود بن رمضان الرومي الشبلي توفي حدود ٧٢٣ هـ في الينابيع في معرفة الأصول والتفاريع (٩٢).
- يوسف بن عمر بن يوسف الصوفي الكادوري المتوفى ٨٣٢ هـ في جامع المضمرة والمشكلات (٩٣).
- القاسم بن عبد الله بن قطلوبغا ت ٨٧٩ هـ في الترجيح والتصحيح. مطبوع (٩٤).
- أبو بكر بن علي الحداد العبادي ت ٨٠٠ هـ في السراج الوهاج الموضح لكل طالب ومحتاج، واختصر هذا الشرح في الجوهر النيرة وهو مطبوع (٩٥)، وجرى السراج الوهاج الشيخ أحمد بن محمد بن إقبال وسماه البحر الزاخر (٩٦).

ومن نظمه:

- أبو المظفر محمد بن أسعد المعروف بابن الحكيم ت ٥٦٧ هـ (٩٧).
- أبو بكر بن علي سراج الدين الهاملي (ت ٧٦٩ هـ) (٩٨).
- حافظ الدين محمد بن محمد الكردي المعروف بابن الرازي ت ٨٢٧ هـ (٩٩).

-
- ٩٠ وهذا الشرح يعد من أكبر شروح المختصر، يقع في ثلاث مجلدات، وله نسخ عديدة، انظر: الفهرس الشامل، ٦٤/٩.
 - ٩١ ذكره كارل بروكلمان في تاريخ الأدب العربي، ترجمة: بإشراف محمود فهمي حجازي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، ١٩٩٣ م، ٣/١٢٠، انظر: الفهرس الشامل، ٧/٧٣٩.
 - ٩٢ وله نسخ كثيرة كما ذكر في الفهرس الشامل، ١١/٦١٧.
 - ٩٣ له نسخ خطية عديدة، منها نسخة مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، ٧٥/٢٥٤، فقه حنفي، انظر: الفهرس الشامل، ٣/٨١.
 - ٩٤ طبع الكتاب بتحقيق الأستاذ ضياء يونس بدار الكتب العلمية، ١٤٢٣ هـ.
 - ٩٥ طبع عدة طبعات باسطنبول وبدلهي بالهند، وصور منها. كما له نسخ خطية كثيرة، انظر: الفهرس الشامل، ٣/٣١٣.
 - ٩٦ كما ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون، ٢/١٦٣١.
 - ٩٧ انظر: كشف الظنون، ٢/١٦٣٢.
 - ٩٨ ذكره إسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين، ١/٢٣٥.
 - ٩٩ كما ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون، ٢/١٦٣٣.

- وقد قام أبو الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني ت ٥٩٣هـ بالجمع بين الجامع الصغير لمحمد بن الحسن ومختصر القدوري في مختصره المشهور: بداية المبتدي في الفروع، ثم شرحه في كتابه المعروف ب: الهداية شرح بداية المبتدي (١٠٠).

- وقد قام الإمام مظفر الدين أحمد بن علي بن ثعلب المعروف بابن الساعاتي البغدادي ت ٦٩٤هـ بجمع مسائل القدوري مع غيرها في مختصر بديع هو مجمع البحرين وملتقى النهريين (١٠١)، وقد شُرح هذا المختصر بشروح كثيرة (١٠٢).

كما أن الكتاب ترجمت بعض فصوله إلى اللغة الألمانية والفرنسية في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي (١٠٣)، وأما ترجمته إلى اللغات التركية والأردية ونحوها فكثيرة، وخاصة في القارة الهندية، حيث يعد الكتاب من أهم مقررات المدارس الدينية، بل هو أول كتاب يدرس لطلبة الفقه الإسلامي (١٠٤).

المطلب الثالث: منهج القدوري في مختصره، ومصادره، ومقارنته ببعض المختصرات:

لم أجد في النسخ المطبوعة والمخطوطة لكتاب المختصر (بحسب اطلاعي) مقدمة للكتاب، ولو وجدت لعلمنا غرض المؤلف من التأليف وأسلوبه وطريقة عرضه للمسائل، وتقسيم أبوابه وفصوله في الكتاب، وفلسفته في ذلك، من المؤلف نفسه كما هي عادة المؤلفين غالباً. وكما ذكر المؤلف نفسه في مقدمة كتابه التجريد موضحاً الغرض من التأليف، ومبيناً أهم محتويات الكتاب وطريقة عرضه بإيجاز، بقوله: "قد أفردنا في هذا الكتاب ما خالف فيه الشافعي بإيجاز الألفاظ، واستيفاء معانيه، وأوردنا الترجيح؛ ليشارك المبتدئ والمتوسط في فهمه والانتفاع به، والله ولي التوفيق" (١٠٥). ويتميز المختصر بوضوح اللفظ وسلاسة العرض، وسهولة الأسلوب، وسلامة العبارة، لا تشعر فيه بتعقيد ولا بخفاء، بل يلائم ما قرأت فيه ظهور المعنى، وجلاء المراد، ووضوح الغرض.

رتبه المؤلف رحمه الله تعالى على ثلاثة وستين باباً:

-
- ١٠٠- والكتاب معروف ومشهور لدى الأحناف وطبع طبعات عدة.
 - ١٠١- طبع بدار الكتب العلمية ببيروت بتحقيق إلياس قبلان. كما للكتاب نسخ عديدة، انظر: الفهرس الشامل، ٨٢/٩.
 - ١٠٢- انظر: مقدمة التجريد للقدوري، للمحقق.
 - ١٠٣- انظر: أحمد بن محمد القدوري، مقدمة كتاب التجريد، تحقيق علي جمعة وغيره، دار السلام، القاهرة، ط ١، ١٤٢٥هـ، ١/١٤.
 - ١٠٤- يراجع مقدمة كتاب اللباب في شرح الكتاب، حيث ذكر المحقق أغلب شروح المختصر، مطبوعاً ومخطوطاً، مع دراسة مستفيضة عن بعضها، وقد أفدت منها كثيراً. فجزاه الله تعالى خيراً.
 - ١٠٥- مقدمة التجريد، ١/٥٣.

بدأها بأبواب العبادات، من: الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج.
فأبواب المعاملات وما يتبعها من: البيوع، والرهن، والحجر، والإقرار، والإجارة، والشفعة،
والشركة، والمضاربة، والوكالة، والكفالة، والحوالة، والصلح، والهبة، والوقف، والغصب، والوديعة،
والعارية، واللقطة، والختنى، والمفقود، والإباق، وإحياء الموات، والمأذون، والمزارعة، والمساقاة.
فأحكام الأسرة وما يتبعها، من: النكاح، والرضاع، والطلاق، والإيلاء، والخلع، والظهار، واللعان،
والعدة، والنفقات، والحضانة، والعتاق، والمكاتب، والولاء.

فأبواب الجنايات والحدود، من: الجنايات، والديات، والمعاقل، والحدود، والسرقة.
فأبواب الأشربة، والصيد، والذبائح، والأضحية، والأيمان، والدعوى، والشهادات والرجوع عنها،
وآداب القاضي، والقسمة، والإكراه، السَّير، والحظر، والإباحة، والوصايا، والفرائض التي ختم بها الكتاب.

كما افتتح المؤلف رحمه الله كتابه المبارك بقول الله عز وجل (مَتِينًا وَمُتَرَكِّمًا) ﴿يَتَأْتِيهَا الذَّبَرُونَ﴾
﴿أَمْتُونَ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ (١٠٦)(١٠٧)، واستشهد في بدايته (١٠٨) بحديث المغيرة
بن شعبة رضي الله عنه: "أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى سبابة (١٠٩) قوم فبال، وتوضأ، ومسح على
ناصيته وخفيه... (١١٠)"، وبعد ذلك قلما تطرق إلى الاستدلال في أثناء الكتاب (١١١). وأما بالنسبة
للخلاف فإنه رحمه الله يقارن غالباً بين آراء أشهر أئمة المذهب: أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد رحمهم الله،
بل وزفر رحمه الله أحياناً (١١٢). وقد بلغ عدد مسائله اثني عشر ألف مسألة (١١٣).

ومن مزايا هذا المختصر: أن القدوري ضمَّه المسائل العلمية المهمة المتداولة الواقعة في حياة
الناس دائماً، وتجنب المسائل النادرة الوقوع، والقضايا الغريبة في المجتمعات، ومن ثم لم يستغن اللاحقون

-
- ١٠٦ - سورة المائدة، الآية: ٦.
١٠٧ - انظر: مختصر القدوري، ص ٤.
١٠٨ - انظر: المرجع السابق، ص ٥.
١٠٩ - السبابة: هي الموضع الذي يرمى فيه التراب والأوساخ وما يكنس من المنازل، النهاية لابن الأثير، مادة "سبط".
١١٠ - جزء من حديث أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطهارة، باب ما جاء في البول قائماً، ٣٠٥، ٣٠٦، وصححه
الألباني، انظر: صحيح سنن ابن ماجه له، ٥٦/١.
١١١ - انظر: مختصر القدوري، ص ٣٤، ٣٩ وما بعدها.
١١٢ - انظر: المرجع السابق.
١١٣ - انظر: كشف الظنون، ١٦٣١/٢.

له من فقهاء المذهب عن كتابه المختصر في التأليف من التضمين له، أو توضيح مشكلاته، أو الاستدلال لمسائله، إضافة لما عُلم بالترام القدوري إيراد المسائل المعتمد عليها دون ما سواها وأشهرها ذكراً، وأقواها اعتماداً، مما تطمئن النفوس في التلقي لأحكام دين الله عزوجل وشرعه.

وهذا ما حدا بالإمام السمرقندي أن يفتتح كتابه بقوله: "اعلم أن المختصر المنسوب إلى الشيخ أبي الحسين القدوري رحمه الله جامع جماً من الفقه مستعملة؛ بحيث لا تراها مدى الدهر مهملة، يهدى بها الرائض في أكثر الحوادث والنوازل، ويرتقي بها المرتاض إلى أعلى المراقي والمنازل، ولما عمت رغبة الفقهاء إلى هذا الكتاب، طلب مني بعضهم من الإخوان والأصحاب، أن أذكر فيه بعض ما ترك المصنف من أقسام المسائل، وأوضح المشكلات منه بقوي من الدلائل، ليكون ذريعة إلى تضعيف الفائدة بالتقسيم والتفصيل، ووسيلة بذكر الدليل إلى تخريج التحصيل..." (١١٤).

مصادر المؤلف في مختصره:

ذكرنا سابقاً أن المؤلف لم يجعل لكتابه مقدمة ندرک منها غرض تأليفه، وتتوصل من خلالها إلى مصادر مختصره التي استقى منها المسائل التي دُونها، ولم يذكر المؤلف رحمه الله تعالى أيضاً في ثنايا كتابه المصادر التي استفاد منها في هذه القضايا، لا تصريحاً ولا إيهاماً، وكذا السنة التي بدأ بتأليف المختصر فيها، كما هي عادة كثير من المؤلفين. وغالب الظن أن القدوري صنف مختصره في آخر عمره حيث جمعه لولده محمد والذي توفي سنة ٤٤٠ هـ وهو شاب قبل أوان الرواية، وتوفي المؤلف سنة ٤٢٨ هـ، مما يشعر القارئ أنه صنفه في العشر الأخير من عمره، بعد نضج عقله وفهمه، وبلوغه المراتب العالية في العلم والفقه، وهذا ما عرف عنه رحمه الله تعالى، ومن ثم يعلم أن المؤلف وضع عصارة فقهه، وزبدة علمه، وخلاصة فهمه في مختصره المبارك، ولا غرو بعد هذا أن يسمى المختصر "الكتاب".

وأما من جهة المصادر فالذي يعرف بداهة في مثل هذه الحالة أن المؤلف رحمه الله استقى معلومات مؤلفه من كتب أسلافه في المذهب. فأوائل هذه الكتب التي استقى منها المسائل: هي كتب أصول المذهب المسماة بكتب ظاهر الرواية للإمام محمد بن الحسن الشيباني - إذ على كتبه الاعتماد في نقل المذهب - وهي: الأصل المبسوط، والجامع الكبير، والجامع الصغير، والسّير الكبير، والسّير الصغير، والزيادات، إضافة إلى ما كتب عليها من شروح لفقهاء المذهب وأئمة. كما يتوقع أيضاً أنه استفاد من المختصرات السابقة عنه لأئمة المذهب، مثل مختصر الطحاوي ٣٢١ هـ، ومختصر الكافي للحاكم الشهيد

٣٣٤هـ، ومختصر الكرخي ٣٤٠هـ خاصة؛ حيث شرحه المؤلف شرحاً مستفيضاً موسعاً، بل يعد شرحه هذا من أوسع وأكبر كتب القدوري رحمه الله تعالى، وأسأل الله تعالى أن يظهر للقراء عاجلاً. والله الموفق. ولا غرو أنه استفاد أيضاً في جمع مختصره من كتب أخرى لا تعرف في وقتنا، وهكذا قدم الإمام القدوري تحفة رائعة للمذهب الحنفي، باختيار أقوى الروايات والقول المعتمد في المذهب، بأسلوب سلس رائع، وبتسويق وترتيب جميل، حتى أصبح المختصر كعبة ومرجعاً لفقهاء المذهب خاصة، ولجميع المسلمين عامة.

مقارنة نص مختصر القدوري مع نصوص المتون الأخرى:

من أجل توضيح وإظهار مكانة نص المختصر بين سائر متون الفقه الحنفي لا بد من إجراء مقابلة ومقارنة بين نص المختصر وبين بعض نصوص المتون المعتمدة في المذهب التي تناولت الموضوع نفسه، حتى يتبين الأمر بجلاء ووضوح للقارئ المتأني، ومن ثمَّ يظهر موقع المختصر وأهميته، كما ارتضاه فقهاء المذهب عبر القرون - مقدماً ومبرزاً على بقية المتون الفقهية في المذهب. وقد اخترت ثلاثة متون معتمدة في المذهب لإجراء المقارنة مع المختصر، واخترت نصاً واحداً من باب واحد من الكتب الأربعة، وذلك لإظهار وتبيان ما يمكن تبيانه من خلال مقارنة النصوص، والمتون الثلاثة هي: المختار للموصلي، الوقاية للمحبوبي، كنز الدقائق للنسفي، والباب هو مقدمة باب التيمم:

نص مختصر القدوري: "ومن لم يجد الماء وهو مسافر أو خارج المصر، بينه وبين المصر نحو الميل أو أكثر، أو كان يجد الماء إلا أنه مريض، فخاف إن استعمل الماء اشتد مرضه، أو خاف الجنب إن اغتسل بالماء أن يقتله البرد أو يمرضه، فإنه يتيمم بالصعيد" (١١٥).

نص المختار للموصلي: "من لم يقدر على استعمال الماء لبعده ميلاً، أو لمرض (ف) أو برد (ف) أو خوف عدوٍّ أو عطش أو عدم آلة، يتيمم بما كان من أجزاء الأرض..." (١١٦).

نص الوقاية للمحبوبي: "هو لمحدث وجنب وحائض، ونفساء لم يقدروا على الماء؛ لبعده ميلاً، أو لمرض أو برد أو عدوٍّ أو عطش أو عدم آلة... على كل طاهر من جنس الأرض كالتراب والرمل والحجر..." (١١٧).

١١٥ - مختصر القدوري، ص ٥٠.

١١٦ - الاختيار لتعليل المختار، ٢٠ / ١.

١١٧ - الوقاية مع شرح الوقاية، ٥٨، ٥٧ / ١.

نص كنز الدقائق للنسفي: "يتيمم لبعده ميلاً عن ماء، أو لمرض، أو برد، أو خوف عدو، أو سب، أو عطش أو فقد آلة، مستوعباً وجهه ويديه مع مرفقيه بضربتين... بظاهر من جنس الأرض" (١١٨).

أوجه المقارنة:

- * سلاسة العبارة: بنظرة سريعة يجد القارئ المتأني بأن نص القدوري سهل مستساغ سلس، يتبين الغرض من العبارة ويُفهم المقصود منه من أول وهلة.
- بينما نجد في نصوص المتون الأخرى بأن القارئ يحتاج إلى التأني وتقدير المحذوف، واحتمال أكثر من وجه.
- * كما أن نص القدوري خالٍ من ذكر موافقة ومخالفة المذاهب الأخرى؛ مراعاة لثقافة وعمر المتلقي؛ حتى لا يُشوّش في تلقي المعلومات الأولية، وقد راعى المؤلف في جميع عبارات الكتاب جانب المتلقي.
- بينما نجد صاحب المختار يذكر المخالف في المسائل بالرمز - وهو جيد لطلاب المرتبة العالية نسبياً - بينما يؤدي الطالب المتبدئ إلى شيء من الخلل والتشويش في تثبيت المعلومات الضرورية المذهبية؛ إذ التقدير في قارئ هذه المتون غالباً المتبدئ في التفقه والصغير في السن.
- * نجد في نص القدوري استيعاب الفكرة المتعلقة بالمسألة، وذكر أساس القضية.
- مثلاً ذكر صاحب المختصر "وهو مسافر" و "فخاف إن استعمل الماء اشتد مرضه أو خاف الجنب إن اغتسل بالماء أن يقتله البرد أو يمرضه فإنه يتيمم بالصعيد".
- إذ السفر أهم علة الحكم، فنص عليه القدوري، ولم يذكره الآخرون.
- والعبارة الثانية "فخاف إن استعمل..." وضح بأن جواز التيمم مناط أيضاً بخوف اشتداد المرض.
- بينما الآخرون أشاروا إلى ذلك تضميناً، لكن قد لا يدرك المتبدئ ذلك.
- والعبارة الثالثة "أو خاف الجنب.." نظر صاحب المختصر في الحكم إلى ما يترتب عليه، بمعنى: ما يؤول إليه الحكم، إن استعمل الماء وهو في تلك الحالة.
- فهذا الجانب لم يتعرض له أحد من أصحاب المتون الأخرى.

* استعمل القدوري عبارة "يتيمم بالصعيد"، فالصعيد كلمة جامعة شاملة للمعنى المطلوب، حيث حرص المؤلف على استعمال ألفاظ الوحي تبركاً واختصاراً أولاً ثم ذكر ما ذكره الآخرون (من باب الجواز والاستيعاب).

- بينما الآخرون ذكروا معنى "الصعيد" بألفاظ كثيرة: وكقول النسفي "بما كان من أجزاء الأرض". كقول النسفي: "بطاهر من جنس الأرض". من غير أن يذكر الصعيد الطيب.

* كما يرى الناظر في مجمل هذا النص أن المؤلف رحمه الله راعى جانب الفقه المستعمل الواقع في حياة الناس بصورة دائمة، وابتعد عن ذكر أمور بعيدة الوقوع - وإن كان من ضمن العلل - مثل: "العدو، أو السبع، أو العطش" ونحوها. وهذا ما أكد عليه اللاحقون للمؤلف من الفقهاء، وقد مر قول السمرقندي في مقدمة كتابه تحفة الفقهاء: "إن المختصر .. جامع جملاً من الفقه مستعمله، بحيث لا تراها مدى الدهر مهملة ..".

- أخيراً فقد وفق الله عز وجل المؤلف توفيقاً عظيماً في تأليف هذا المختصر المبارك وأيده بتأييد من عنده، حتى لقي القبول لدى الدارسين والمدرسين قبولاً منقطع النظير.

وقد قال العيني في البناية: "سمعت من بعض الأساتذة الكبار يقول: إن القدوري رحمه الله تعالى لما فرغ من تصنيف مختصره المنسوب إليه حجج، وأخذ المختصر معه، ولما فرغ من طوافه سأل الله سبحانه وتعالى أن يوقفه على خطأ فيه، أو سهو منه وقَعَ عن قلم، ثم إنه فتح المختصر وتصفّحه ورقةً ورقةً إلى آخره، فوجد فيه خمسة مواضع، أو ستة مواضع محوّة، وهذا يُعدُّ من كرامته" (١١٩).

فجزى الله عز وجل المؤلف جزاءً حسناً لما قدمه من جهود علمية فذة، وأجزل له المثوبة وغفر الله تعالى له ورحمه، وأسكنه فسيح جنّته . آمين.

خلاصة البحث:

كلمة المختصر شاع استعمالها لكتاب يختصره وتُستل مادته من كتاب آخر مطول، ولكن هذا المعنى ليس مطرداً بل يطلق ويراد بها: الكتاب المشتمل لأهم المعلومات بأقل الألفاظ وأجزها في ذلك الفن دون أن يكون مختصراً لكتاب معين.

والمتن: هو ما يكتبه مؤلفه ابتداءً، أو استخلاصاً من كتب السابقين، دون الارتباط بشرح كتاب آخر. والمتن يأتي بمعنى المختصر، ويأتي مقابلاً للشرح، ثم إن المتن لا يكون مختصراً مطرداً دائماً، فكل

كتاب مشروح يعد متناً سواء كان صغيراً أم كبيراً.

- نشأت المختصرات في شتى الفنون، وفي الفقه المذهبي على القول المعتمد خاصة بعد القرن الأول، وذلك: لتقريب وتسهيل العلم لمن أراد تعلمه وحفظه، فإن الكلام يختصر ليحفظ.
- بلغ الإمام القدوري مكانة بارزة بين فقهاء المذهب الحنفي، حيث انتهت إليه بالعراق رئاسة المذهب، وعُدَّ من طبقة المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب لدى المحققين من فقهاء المذهب.
- أصول المذهب الحنفي: هي كتب ظاهر الرواية الستة لمحمد بن الحسن الشيباني.
- ثم تبعه الحاكم الشهيد بكتابه الكافي حيث جمع فيه كتب ظاهر الرواية. وتبعه الطحاوي بـ: مختصره، ثم الكرخي، ثم جاء القدوري ونافس الجميع بـ: مختصره.
- وتلاههم في عصر المتون المحبوبي بـ: الوقاية والموصلي بـ: المختار والنسفي بـ: الكنز فأصبحت هذه المتون هي المعتمدة والمعتمدة في المذهب ومقدمة على الشروح والفتاوى. "إن المتون موضوعة لنقل ما هو المذهب، فلا يعدل عما فيها".
- كتاب مختصر القدوري حاز من القبول والثناء والتقدير ما لم يحز سائر كتب المذهب.
- كما أن اهتمام فقهاء الأحناف بالكتاب المختصر فاق عن سائر الكتب في المذهب اهتماماً وعناية.
- وبلغت الشروح والحواشي والتعليقات والتخریجات والتصحيحات على هذا الكتاب ما يربو عن مائة كتاب، بالإضافة إلى ترجمته إلى اللغات المختلفة.
- تميّز المختصر - من بين المختصرات - بوضوح اللفظ وسلاسة العرض، وسهولة الأسلوب، وسلامة العبارة، وجلاء المراد، ووضوح الغرض.
- فإذا أطلق الكتاب في المذهب الحنفي فيراد به: كتاب مختصر القدوري .
وصلّى الله على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم.

Abstract

Status of *Mukhtasar* by al-Qudūrī in the Ḥanafī fiqh

This paper explains the significance of concise texts that have been in vogue in the Muslim academic tradition. These texts were produced and profusely used to put together the substantive

knowledge about various disciplines. These were helpful not only in enabling learners to register and absorb the essentials of a discipline, but were also a useful means for the teachers/scholars in the relevant discipline to employ as comprehensive text in teaching a discipline and elaborate their discourse further on that basis. In this respect, particular introduction has been attempted in this paper to bring to light the importance of *Mukhtaṣar* by al-Qudūrī, (d.428 AH), an outstanding Ḥanafī jurist of Baghdad in the fifth century of Hijra. This *Mukhtaṣar* enjoyed a popularity and acceptability among subsequent Hanafī jurists of all times that is unsurpassed. While there have been many other texts produced in various fields that were abbreviatively known as *al-Mukhtaṣar*, the impact of the treatise produced by Imam al-Qudūrī by far exceeds that of other texts. Even today *Mukhtaṣar* by al-Qudūrī has been widely in circulation in the academic circles of the Ḥanafī school in different parts of the world. The significance of this *Mukhtaṣar* is further augmented by tracing its origin to the basic sources of Ḥanafī jurisprudence namely, the six books known as *Zāhir al-Riwāya* by Muḥammad b. al-Ḥasan al-Shaybānī, *al-Kāfī* by al-Ḥākim al-Shahīd (which contained the former six books), al-Ṭahāwī and al-Karkhī in their works also known as *al-Mukhtaṣar*. In passing, some introduction has been given to similar texts that circulated in other schools of *fiqh*.

الدراسات اللسانية في تفسير "البسمة"

في القرون الثلاثة الأولى

عبد الماجد نديم

إن الله تبارك وتعالى نزل على عبده محمد النبي الأمي صلى الله عليه وسلم الكتاب الكريم - القرآن الحكيم - هداية ورحمة للعالمين مكملاً لدينه ومُتَبِّئاً نعمه، مصدقاً لما قبله من الكتب والرسول. واختار الله لكتابه المجيد البشير النذير لساناً عربياً حسب سنته التي مضت في القرون السالفة، يرسل الرسل وينزل الكتاب في لسان المخاطبين، ليستفيدوا من كلام الله وكتابه حق استفادته ويقوموا بدورهم بنشر رسالته الخالدة، حتى يتحقق الهدف ويُنال المطلوب، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنَذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِّلْمُحْسِنِينَ﴾^(١)، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

والمعلوم أن اللغة العربية لغة العرب - مخاطبي النبي صلى الله عليه وسلم الأولين - الذين كانوا معتزّين بلسانهم، ومفتخرين بإبانة كلامهم وإعجام الآخرين، وكانت اللغة واستخدامها الأوضح والأبلغ مبلغ افتخارهم واعتزازهم، فطبقا لسنته تبارك وتعالى في إعجاز القوم في مجالهم مفتخرون به، أعجزهم الله تعالى بإنزال الكتاب الحميد بلسان أفتح من كلامهم وأبلغ من شأنهم وأبين مما كان في إمكانهم ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾^(٣)، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤).

١ - سورة الأحقاف، الآية: ١٢.

٢ - سورة إبراهيم، الآية: ٤.

٣ - سورة النحل، الآية: ١٠٣.

٤ - سورة البقرة، الآية: ٢٣.

ولما كان القرآن كلاماً عربياً مبيناً، أنزل على لغة العرب ولسانهم وسنتهم في كلامهم، يحتاج كل من أراد التأمل في معانيه والتدبر لمفاهيمه أن يعرف سنن العرب في كلامهم، ويتدبر في تلك السنن ويتأمل في دقائقها. فنظراً إلى هذه الحقيقة تصدّى كل من الأسلاف الكرام والمفسرين العظام للإتقان والتعمق في العلوم التي تفيدهم في فهمه والغوص في معانيه، من الأصوات العربية، وقواعدها - من بنية الكلمة إلى بناء الجملة، ودلالة كلماتها وجملة، وأساليب العرب في كلامها من المعاني والبيان والبديع، فتيسر لهم فهم كلام الله وتفهمه، وبلغوا فيه ما لم تبلغه سائر الأمم في فهم الكتب المنزلة عليهم.

وإن كل من تصفح تاريخ التفسير وجد أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا بعد القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم يعوّلون على معرفتهم بلغتهم وأساليبهم في الكلام في فهم معاني القرآن. وكانوا يستدلون على تقرير المعنى بشيء من أشعار العرب، وعلى هذا السبيل جرى التابعون وأتباعهم دون نكير، وفيه تفصيل في تفاسير القرآن وكتب علومه^(٥). فنظراً إلى هذه الأهمية لعلوم اللسان العربي لم يُجز السلف الصالح تفسير القرآن لمن كان علمه بلغات العرب ناقصاً من أية جهة حتى منعوا من الكلام فيه من لم يكن عالماً بها كما قال مجاهد: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب"^(٦)، وقال الإمام مالك: "لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب، يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا"^(٧) وقال الإمام الشاطبي في الموافقات في أصول الشريعة: "من أراد تفهم القرآن، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلّب فهمه من غير هذه الجهة"^(٨).

وإذا نظرنا وراءنا إلى أعرق تاريخ لتدوين التفسير وجدنا المساعي الأولى لفهم معاني القرآن وتفسيره في صورة مجاز القرآن وغريب القرآن ومعاني القرآن وإعراب القرآن وغيرها من العناوين، وقد أفعم كل تفسير من هذه التفاسير بالدراسات اللغوية والنحوية والصرفية، وفي هذا الحشد أكبر حجة

-
- ٥- أكبر شهادة على استشهاد الصحابة ومن بعدهم من التابعين وتبع التابعين بكلام العرب طلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشهادة على معنى "الأب" في القرآن الكريم (وفاكهة وآب)، واستشهد أحد من شيوخ الهذيل بشعر شاعرهم فاطمناً عمر رضي الله عنه. وهكذا كان عبد الله بن عباس رضي الله عنه، أنه إذا سئل عن معنى كلمة استشهد بشعر العرب، وكان يقول: إذا سألتوني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب. وفي هذا تفصيل، انظر: الزمخشري، الكشاف، دار المعرفة، ٢٢٠/٤، ودار إحياء التراث العربي، ٧٠٥/٤، والقلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر، ط ١، ١٩٠٣م، ٥٦/١، والسيوطي، الإتقان لعلوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٢٤٢/١.
- ٦- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ٢٩٢/١.
- ٧- أبو بكر البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق: زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٤٢٥/٢، ٤٢٦.
- ٨- أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، دون تاريخ، ج ٢/٦٤.

لما نحن فيه من إثبات أهمية الدراسات اللسانية في تفسير القرآن الكريم. وكان الأوائل من المفسرين يستعينون بعلوم اللسان العربي شرح الآيات القرآنية، ولتحقيق هذه المهمة اخترت عت العلوم اللسانية في اللغة العربية، ومما لا شك فيه أن علوم اللسان العربي من نحو و صرف ولغة ومعجم وبلاغة وأدب ترجع نشأة كل منها إلى تفسير القرآن الكريم وتبعاً له إلى جميع علوم الدين؛ ومن ثم تغلغت علوم العربية في صلب علوم القرآن، من قراءة وتفسير، فهناك ارتباط قوي وتلازم وثيق وتأخ بين العلوم العربية والعلوم القرآنية، إذ إنه يعسر على الدارس فصل تلك العلوم عن بعض.

وهكذا، إن الواقف على تفاسير القرون الثلاثة الأولى يجدها مليئة بالمباحث اللسانية من أصول الكلمات ومشتقاتها، وشكلها وإعرابها، وتصريفها ومعانيها، وقلبها وإبدالها، وأدوات أخرى شغلت أهل اللغة والنحو والتصريف و علماء البلاغة والعلوم اللسانية الأخرى. فالتفاسير القرآنية مشتملة على جواهر اللسان العربي وتراثه الغني، ما يغني الباحث عن المعاجم العربية وكتب النحو والتصريف وغيرها من الكتب التي تهتم بعلوم اللغة العربية، بل صارت تلك المواد اللغوية والنحوية والبلاغية وما إليها موضع استفادة للغويين والنحويين والبلاغيين الذين جاءوا بعد أصحاب تلك التفاسير القيمة، ولا نبالغ في القول إذ قلنا إن كتب التفسير بفضل اتجاههم اللغوي والأدبي و البلاغي والنحوي وجميع علوم العرب صارت دواوين لغة العرب ودواوينهم.

فنظراً إلى هذه المكانة للعلوم اللسانية في كتب التفسير، وأهمية تلك البيانات اللسانية فيها عند علماء اللغة والأدب، والنحو والبلاغة والمعاجم، يجد الباحث ضرورة الجمع والدراسة لتلك المباحث التي ناقشها علماء التفسير في القرون الثلاثة الأولى الهجرية تحت مظلة كلمات القرآن الكريم وآياتها، دراسة تحليلية مع مقارنة آرائهم، وتوضيح اتفاهم فيها واختلافهم مع إشارة تأثر وتأثير لهم، لتكون دراسة أصيلة ومفيدة لكل من أراد فهم معاني القرآن الكريم ودراسة مشكلاته اللسانية من أمهات كتب التفسير، والوصول إلى تلك الآراء التي قال بها الأولون من المفسرين الذين كانوا مصادر لا في التفسير فقط بل أيضاً في اللغة وعلوم اللسان العربي.

إن زيادة هؤلاء المفسرين ترجع إلى حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى عنه الأحاديث الصحيحة. وقال ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس (٩).

ثم يأتي اسم حليف القرآن الإمام الشهيد زيد بن علي رحمه الله، هو زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم، وكان رحمه الله يكنى بأبي الحسين. وقال فيه الإمام أبو حنيفة رحمه الله: "شاهدت زيد بن علي كما شاهدت أهله فما رأيت في زمانه أفقه منه، ولا أعلم ولا أسرع جواباً ولا أبين قولاً، لقد كان منقطع القرين"^(١٠) وقال الإمام جعفر الصادق رحمه الله ابن أخيه وتريه: "كان والله أقرأنا لكتاب الله وأفهمنا في دين الله وأوصلنا للرحم، والله ما ترك فينا لدنيا ولا لآخرة مثله"^(١١).

ومن ثم النحوي المشهور صاحب معاني القرآن أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء الكوفي، وكان المأمون قد وكل بالفراء ولديه يُلقنهما النحو. وورد عن ثعلب^(١٢) أنه قال: لولا الفراء لما كانت عربية، وكسقطت لأنه خلصها^(١٣). واللغوي الكبير صاحب مجاز القرآن أبو عبيدة معمر بن المثنى الهروي، هو الإمام العلامة البحر، صاحب التصانيف. ولد في سنة عشر ومائة، قد كان من بُحور العلم^(١٤). والنحوي العالم باللغة والأدب أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط أخذ عن الخليل ابن أحمد، ولزم سيويه حتى برع، وله كتب كثيرة في النحو والعروض ومعاني القرآن^(١٥). والأديب المفسر اللغوي المؤرخ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري نزل بغداد، وصنّف وجمع، وبعّد صيته، وقد ولي قضاء الديّونور، وكان رأساً في علم اللسان العربي، والأخبار، وأيام الناس... وإنما هو من كبار العلماء المشهورين، عنده فنونٌ جمّة وعلومٌ مهمّة^(١٦).

وصاحب جامع البيان عن تأويل آي القرآن مصدر كل مصدر في علوم القرآن والتفسير

١٠- تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المعروف بالمقرئزي، الخطط المقرئزية، دار العرفان، بيروت، بدون رقم الطبعة والتاريخ، ٣/٣٣٥.

١١- المرجع نفسه، وجمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي، تهذيب الكمال، دار الفكر، بيروت، بدون رقم الطبعة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ٦/٤٧٨، وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركلي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ١٥/٢١.

١٢- هو العلامة المحدث، إمام النحو، أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني مولا هم البغدادي، صاحب تصانيف. ولد سنة مئتين ومات في إحدى وتسعين ومئتين. شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ١٤/٥-٧.

١٣- انظر: سير أعلام النبلاء، ١٠/١١٨-١١٩.

١٤- انظر: المرجع نفسه، ٩/٤٤٥-٤٤٧.

١٥- انظر: المرجع نفسه، ١٠/٢٠٦-٢٠٨.

١٦- انظر: المرجع نفسه، ١٣/٢٩٦-٣٠٢.

أبو جعفر محمد بن جرير بن زيد بن كثير الطبري. هو الإمام العلم المجتهد، عالمُ العصر، صاحب التصانيف البديعة، من أهل أمَل طَبْرِسْتَان. وكان من أفراد الدهر علماً وذكاءً، وكثرةً تصانيف، قلَّ أن ترى العيون مثله (١٧).

وكان على هؤلاء المذكورين تعويل من جاء بعدهم من المفسرين واللغويين والمعجميين والنحويين والصرفيين والبلاغيين، وكلٌّ من كان له أدنى صلةٍ بعلوم القرآن واللسان العربي. وهؤلاء كانوا مجتهدين فيما ذهبوا إليه وأما من جاء بعدهم فقام مقام الراوي عنهم، أو الشارح لكلامهم أو المعلق على أقوالهم وآرائهم، ولو أكثرَ فقام مقام المرجح مذهباً على مذهب غيره أو رأياً على رأي آخر، ولو جاء أحد من المتأخرين برأي اجتهادي بدون الإسناد إلى المتقدمين أو الاعتقاد عليهم فذاك شاذٌ.

وفي هذه المقالة يركز الباحث اهتمامه على "البسملة" وما جاء فيها من المباحث اللسانية العربية في تفاسير القرون الثلاثة الأولى.

كلمة "البسملة" اسمٌ منحوت لـ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وهي أولُ آية من القرآن الكريم تتلى وتكتب قبل كلِّ سورةٍ فيه تبرُّكاً بها، سوى سورة التوبة ذات الرقم ٩ في ترتيب المصحف والمسماة أيضاً بسورة البراءة، وهي جزءٌ من الآية ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الثلاثين من سورة النمل ذات الرقم السبع والعشرين في ترتيب المصحف.

وأما دراستها فنجد في البداية أن آية ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تشتمل على خمس كلمات؛ وهي: ب، اسم، الله، الرحمن والرحيم.

تعثر في تفاسير القرون الثلاثة الأولى الهجرية على دراسةٍ لسانيةٍ لكلِّ كلمةٍ من هذه الكلمات الخمس. ودُرست هذه الكلمات على مستوى بنية الكلمة وبناء الجملة والدلالة والأسلوب، وأما المستوى الصوتي فلا نجد له سبيلاً في تفاسير هؤلاء المفسرين المذكورين تحت تفسير البسملة إلا قليلاً. وأما البحث الأسلوبي فيرتكز على ترتيب أسماء الله وصفاته "الله" و"الرحمن" و"الرحيم". وأغلبية الأبحاث اللسانية تشكّل في دلالة الكلمات وبنيتها وبناء الجملة. ويجد الباحث تحت كلِّ كلمةٍ بحثاً على مستوى واحدٍ وفي بعض الأحيان على مستويين أو أكثر، وفي كثير من الأحيان تكون لهذه الأبحاث صلة مباشرة بالكلمة القرآنية وجملتها وفي بعض الأحيان تكون هذه الصلة غير مباشرة بل يتعرّض المفسّر لذلك البحث استطراداً. ترك الباحث تلك الأبحاث الاستطردية اتِّقاءً من التطويل وإبقاءً على صفحات هذه المقالة.

ولاستزادة إفادة هذه المقالة من حيث أصول علم الأصوات الحديثة وسدّ فراغ المستوى الصوتي في تفاسير القرون الأولى، قام الباحث بـ: تحليل هذه الكلمات الخمس المذكورة التي تشتمل عليها آية ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حسب قواعد علم الأصوات فونيمياً ومقطعياً^(١٨).

أول كلمة في البسملة هي: باء الجرّ (ب)، ذاتٌ مقطع (Syllable) واحد، وهو المقطع المنفتح القصير، المشتمل على الفونيمين: صامتٌ وحركةٌ قصيرة (ص+ح) ويمكن تعبيره بـ: (C V) حسب طريقة إنجليزية أتخذها اللغويون المحدثون، وأمّا نحن فنؤثر الحروف العربية بدل الحروف الإنجليزية.

وأمّا الدراسات اللسانية في القرون الثلاثة حول "باء الجرّ" فتطوّرت عبر الزمن، وبدأت هذه الدراسة من كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة، ولم يتصدّد لهذا الموضوع أحدٌ قبله، حسبنا عثرنا عليها من المساعي التفسيرية للقرآن الكريم قبله ومنها معاني القرآن للفراء. درس أبو عبيدة باء البسملة في تفسيره مجاز القرآن ولكنه أيضاً لم يفصّل فيه القول بل اكتفى بالذكر أنه الإضمار في قوله تعالى، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فيقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، ففيه ضمير مجازه: "هذا بسم الله. أو بسم الله أول كل شيء ونحو ذلك"^(١٩). ويقول في مقام آخر: فمجاز تفسير قوله "بسم الله" مضمّر، مجازه كأنك قلت: "بسم الله قبل كل شيء وأول كل شيء ونحو ذلك"^(٢٠). ثمّ يستشهد بقول عبد الله بن رواحة^(٢١) "من مشطور الرجز":

باسم الإله وبه بدينا ولو عبدنا غيره شقينا^(٢٢)

- ١٨- المقطع هو الفترة الفاصلة بين عمليتين من عمليات غلق جهاز التصويت "غلقاً كاملاً أو جزئياً" فهو أبسط وحدة نطقية. هو مفهوم غربي فيما يبدو. لم يذكره النحاة العرب ولم يهتموا به إلا أننا نرى في العروض "السبب الخفيف" الذي يقابل المقطع. للتفصيل انظر: طيب البكوش، التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م، ص ٧٧.
- ١٩- أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تحقيق: محمد فؤاد سيزكين، محمد سامي أمين الخانجي الكتبي، مصر، ط ١، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م، ١/١١، ١٢.
- ٢٠- المرجع السابق: ١/ ٢٠.
- ٢١- هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو الأنصاري الخزرجي، يكنى أبا محمد، وقيل أبو رواحة، وقيل أبو عمرو. وكان ممن شهد العقبة، وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج، وكان أحد الأمراء في غزوة مؤتة واستشهد بها، وكانت مؤتة في جمادى سنة ثمان من الهجرة. وكان من الشعراء الذين يناضلون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. عز الدين ابن الأثير علي بن محمد الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ، ٣/ ٢٣٧، ٢٣٨، وابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٤/ ٦٦، ٦٧.
- ٢٢- وليد قصاب، ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره، دار العلوم، الرياض، ط ١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ١٤٢. وهذا الرجز من شعره الذي كان يتمثل به المسلمون في يوم الخندق، وهم يحفرون وينقلون التراب.

فتدلّ عبارة أبي عبيدة أن هنالك إضماراً في "بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم" والمضمر هو: "هذا" أو "قبل كل شيء" و "أول كل شيء" ونحو ذلك.

في ضوء هذه المقتبسات من كلام أبي عبيدة نلاحظ أن أبا عبيدة لم يحدّد نوع الإضمار، هل هو مفرد أو مركّب؟ وهل هو اسم أو فعل؟ ولكن من خلال الأمثلة التي أوردها أبو عبيدة في ذكر المضمر نستنبط أنه اسمٌ، والجار والمجرور متعلّقان في موضع رفع مبتدأ أو خبرٌ ومتعلّقتها المحذوف مفردٌ أو مركّبٌ. وفي صورة "هذا بسم الله" الجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف. وأمّا الشاهد الشعري الذي أورده أبو عبيدة ففيه المقدّر فعلٌ وهو "بدينا". وأمّا مسألة مكان المحذوف فإنه لم يحدّد مكانه أهو متقدّم أو متأخّر، ولم يصرّح به ولم يفرّق بين التقدّم والتأخّر فيه من خلال الأمثلة التي أوردها أبو عبيدة لبيان مسألة الإضمار.

وبعد ذلك جاء الأخفش صاحب معاني القرآن ولكنه يتصدّد لهذا البحث. ثم جاء ابن قتيبة صاحب تفسير غريب القرآن فأشار إلى هذا الإضمار ولكنه لم يصرّح به، فيقول في تفسير "بسم الله": "اختصار كأنه قال: أبدأ باسم الله أو بدأت باسم الله" (٢٣). اكتفى ابن قتيبة بهذه العبارة الموجزة. ولكننا نرى في ضوء مثاله الذي ساقه أنه ذهب إلى أن المحذوف فعلٌ وهو متقدّمٌ.

حتى جاء الطبري فتطوّر هذا البحث، وهو درس البسملة بالاستيعاب فذكر هذا الإضمار بشيء من التفصيل، وفيه:

"الباء من "بسم الله" مقتضية فعلا يكون لها جالبا، ولا فعل معها ظاهراً، فأغنت سامع القائل "بسم الله" معرفته بمراد قائله، عن إظهار قائل ذلك مراده قولاً إذ كان كل ناطق به عند افتتاحه أمراً، قد أحضر منطقاً به - إمّا معه، وإمّا قبله بلا فصل - ما قد أغنى سامعاً عن دلالة شاهدة على الذي من أجله افتتح قبله به. فصار استغناءً سامع ذلك منه عن إظهار ما حذف منه، نظير استغنائه - إذا سمع قائلًا قيل له: ما أكلت اليوم؟ فقال: "طعاماً" - عن أن يكرّر المسئول مع قوله "طعاماً"، أكلت، لما قد ظهر لديه من الدلالة على أن ذلك معناه، بتقدّم مسألة السائل إياه عما أكل. فمعقول إذاً أن قول القائل إذا قال: "بسم الله الرحمن الرحيم" ثم افتتح تالياً سورة، أن إتباعه "بسم الله الرحمن الرحيم" تلاوةً السورة، يُنبئ عن معنى قوله: "بسم الله الرحمن الرحيم" ومفهوماً به أنه مرید بذلك: أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم. وكذلك قوله: "بسم الله" عند نهوضه للقيام أو عند قعوده وسائر أفعاله، ينبئ عن معنى مراده بقوله "بسم الله"، وأنه

أراد بَقِيلِهِ "بسم الله"، أقوم باسم الله، وأقعد باسم الله. وكذلك سائر الأفعال" (٢٤).

وقد ذكر الطبري هذا الإضمار، ويحتوي كلامه على سبب لهذا الإضمار أو الحذف، ومنطق العقل السليم في السنن الكلامية حول هذا الحذف - أيضاً - وحدد نوع الكلمة المضمرة وهو الفعل، وأمّا مسألة التقديم والتأخير فالأمثلة التي ساقها فهي تُبدي ميله إلى أن الفعل المحذوف متقدّم، وإن لم يصرح بمكانه في عبارته، وهذا المسلك مثل مسلك ابن قتيبة الذي سبق. وأمّا عن مسألة دلالة الباء في البسملة فقد ذكر الأخفش خلال كلامه عن "الاسم" أنها باء الإلصاق (٢٥).

فمن خلال دراسة هؤلاء المفسرين السبعة عشرنا على أن باء البسملة لم يذكرها ولم يشر إليها سوى أربعة، وهم: أبو عبيدة، والأخفش، وابن قتيبة و الطبري. والأخفش وحيد من هؤلاء المفسرين من ذكر دلالة الكلمة، وأمّا الثلاثة الآخرون فبحثهم حول الإضمار في "بسم الله" يتلخّص في أن المضمّر "اسم" حسبها ورد في عبارة أبي عبيدة و استشهاده، أو "فعل" كما صرح به الطبري وذهب إليه ابن قتيبة وعليه تدل الرواية التي رويت عن ابن عباس رضي الله عنهما: "أَوَّلُ مَا نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ، يَقُولُ: أَقْرَأُ بِذِكْرِ رَبِّكَ، قُمْ وَأَقْعُدْ بِذِكْرِهِ" (٢٦). وأمّا المتأخرون من المفسرين فمنهم من ذكر الرأيين المذكورين ومنهم من رجّح رأي الفعل وبه قال. وأسهب المتأخرون في بحث باء البسملة فتطرّقوا للبحث عن دلالة الباء و شيء من التطويل في موقعه في الجملة (٢٧).

- ٢٤- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٣٧٤هـ/، ومؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج ١/ ١١٤، ١١٥.
- ٢٥- سعيد بن مسعدة البلخي المعروف بالأخفش الأوسط، معاني القرآن، تحقيق: عبد الأمير محمد أمين الورد، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ١٢٥، وبه قال سيبويه.
- ٢٦- الطبري، جامع البيان، ١/ ١١٥.
- ٢٧- للتفصيل انظر: الزجاجي، إعراب القرآن، تحقيق ودراسة: إبراهيم الأبياري، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م، ١/ ١٢، وانظر: تحت تفسير "بسم الله الرحمن الرحيم" النحاس، إعراب القرآن، تحقيق: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، ط ٢، ١٤٠٥هـ والنعلبي، الكشف والبيان، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، والمكي بن أبي طالب المكي القيسي، مشكل إعراب القرآن، والماوردي، النكت والعيون، وابن سيده، إعراب القرآن، والعكبري، إملاء ما من به الرحمن، وابن عاشور، التحرير والتنوير، وأمّا معنى باء الجرّ فأول مفسر تصدّى لبيانه بعد الأخفش هو أبو جعفر النحاس فنقل قول سيبويه قانلاً: قال سيبويه معنى الباء الإلصاق. ثم جاء بعده من المفسرين الذين قالوا في هذه المسألة كثيراً وذكروا له معاني.

والكلمة الأخرى في البسمة هي: "اسم"، ذات مقطع واحد ذي فونيمات (Phonemes) أربعة:
(ص+ح+ص+ص) أي (c v c c)، وهو المقطع العنقودي (٢٨).

وأما في دراسات القرون الثلاثة الأولى فنجد شرحها في قول ابن عباس رضي الله عنهما: "إنَّ أول ما نزل به جبريل على محمد، قال: يا محمد، قل: أستعِذُ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم . قال: قال له جبريل: قل بسم الله يا محمد، يقول: اقرأ بذكر الله ربك، وقم واقعد بذكر الله" (٢٩).

وعن الإمام زيد بن علي رحمه الله: "بسم الله": هو تعظيم الله (٣٠).
يفسر هذان المفسران الإضمار الواقع في "بسم الله" والمعنى المراد للبسمة فقط.
وفي التفاسير التي تلي تفاسير هذين الإمامين الجليلين نجد ثلاثة مباحث حول "اسم" في البسمة، وهي:

- ١- حذف ألف الاسم في البسمة لفظاً وخطاً.
 - ٢- أصل كلمة "اسم" أو اشتقاقها.
 - ٣- المراد من الاسم: هل الاسم والمسّمى واحد؟
- وأما المسألة الأولى فحول بنية "اسم": يقول القراء في بيان هذه المسألة في كتابه معاني القرآن: "اجتماع القراء وكتاب المصاحف على حذف الألف من ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وفي فواتح الكتب، وإثباتهم الألف في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾" (٣١)(٣٢) قوله: اجتماع القراء وكتاب المصاحف يدل على أن الإجماع على حذف ألف الاسم لفظاً وخطاً، وأما السبب لذلك فيجيب عنه: "وإنما حذفوها من ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أول السور والكتب، لأنها وقعت في موضع معروف لا يجهل القارئ

٢٨- هو مقطع ينتهي بأكثر من صامت.

٢٩- كذا عند الطبري في جامع البيان، ١١٥، وقال الطبري: حدثنا به أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمار، قال: حدثنا أبو روق، عن الضحّك، عن عبد الله بن عباس، قال: وكذا في تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا، ٢٥/١، هو روى عن علي بن طاهر، وحدثه محمد بن العلاء يعني أبا كريب الهمداني، وباقي السند كما في جامع البيان للطبري.

٣٠- الإمام زيد بن علي، تفسير غريب القرآن، مكتب الإعلام الإسلامي، ط ١، ١٤١٤هـ ص ١٢٠.

٣١- سورة الحاقة، الآية: ٥٢ وسورة الواقعة، الآية: ٧٤ و٩٦.

٣٢- القراء، معاني القرآن، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ١/١ - ٢.

معناه، ولا يحتاج إلى قراءته، فاستخفّ طرحها لأن من شأن العرب الإيجاز وتقليل الكثير إذا عرف معناه. وأثبتت في قوله ﴿فَسَيَحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ (٣٣) لأنها لا تلزم هذا الاسم، ولا تكثر معه ككثرتها مع الله تبارك وتعالى. ألا ترى أنك تقول ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ عند ابتداء كل فعل تأخذ فيه: من مأكّل أو مشرب أو ذبيحة. فحذفّ عليهم الحذف لمعرفتهم به... فلا تحذفنّ ألف "اسم" إذا أضفته إلى غير الله تبارك وتعالى، ولا تحذفنها مع غير الباء من الصفات وإن كانت تلك الصفة حرفاً واحداً، مثل اللام والكاف (٣٤). فتقول: لاسم الله حلاوة في القلوب، وليس اسم كاسم الله فتثبت الألف في اللام وفي الكاف لأنها لم يستعملا كما استعملت الباء في اسم الله. ومما كثر في كلام العرب فحذفوا منه أكثر من ذا قولهم: أيش عندك، فحذفوا إعراب (٣٥) وإحدى ياءيه، وحذفت الهمزة من "شيء"، وكسرت الشين وكانت مفتوحة، في كثير من الكلام لا أحصيه (٣٦).

فسبب إجماع القراء وكتاب المصاحف على حذف ألف الاسم في البسملة بسبب شأن العرب الإيجاز والتقليل فيها كثر استعماله، فيطرحون فيه ما وقع في موضع معروف لا يجهل القارئ معناه. فحسب هذا الشأن هم يحذفون ألف اسم البسملة من الخطّ، ويتبيّن هذا الكلام من قول الأخفش الأوسط: "وحذفت الألف من "بسم" من الخطّ تخفيفاً لكثرة الاستعمال واستغناء عنها بباء الإلصاق في اللفظ والخطّ". أي حذفت الألف من الخطّ بسبب التخفيف لكثرة الاستعمال وللإلصاق بها بقاء الإلصاق. وأمّا لفظاً فببغاء الإلصاق وكون الألف حرف زيادة في الكلمة، ويأتي البحث عنه في الفقرة القادمة. وأمّا حذف الألف في الخطّ فهو فقط بسبب التخفيف لكثرة الاستعمال، وإن دخل على كلمة "الاسم" حرف آخر مثل ل، ك، و، من غيرها من الحروف الجارّة أو العاطفة فتثبت ألف الاسم ولم تحذف، وإن استخدمت كلمة الاسم مضافةً إلى غير هذا الاسم (الله) فتثبت الألف كما في قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (٣٧) و ﴿فَسَيَحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٣٨)، وكذا يقول الأخفش الأوسط: "فلو

٣٣- سورة الحاقة، الآية: ٥٢ وسورة الواقعة، الآية: ٧٤ و٩٦.

٣٤- الصفة عند الكوفيين حرف الجرّ والظرف، فالقراء هنا يقول لحروف الجرّ صفة.

٣٥- أراد من إعرابه: حركته.

٣٦- القراء، معاني القرآن، ١/١ - ٢.

٣٧- سورة العلق، الآية: ١.

٣٨- سورة الحاقة، الآية: ٥٢ وسورة الواقعة، الآية: ٧٤ و٩٦.

كتبت "باسم الرحمن" أو "باسم القادر" أو "باسم القاهر" لم تحذف الألف" (٣٩).

وأما المسألة الثانية: في بنية كلمة "اسم" فالبحث حولها في معاني القرآن للأخفش، وهذا البحث يتصل ببنية الكلمة وأيضاً يُمثّل البحث الصوتي، وفيه: "والألف في "اسم" ألف وصل، لأنك تقول: "سُمِّي" وحذفت لأنها ليست من اللفظ". الألف من "اسم" حذفت بسبب عدم كونها أصلاً في بنية الكلمة والدليل عليه عدمه في التصاريف الأخرى لهذه الكلمة. وإذا لم تكن أصلاً في بنية الكلمة فمن أين ولم أتت وأدخلت على هذه البنية حتى صارت وعُدَّت جزءاً منها؟ فيجيب الأخفش عن هذا السؤال مبيّناً سبب زيادتها: "وإنما زيدت لسكون الحرف الذي بعدها لما أرادوا استثناؤه فلم يصلوا إلى الابتداء بساكن، فأحدثوا هذه الألف ليصلوا إلى الكلام بها. فإذا اتصل (الكلام) بشيء قبله استغني عن هذه الألف" (٤٠).

فالسبب لزيادة الألف هو سكون الحرف الذي بعدها وهي: سين، ولما كان البدء بحرف ساكن لا يمكنُ فأحدثوا هذه الألف لنطق الكلمة، فإذا اتصل بشيء قبله، مثل بـ في البسملة فاستغني عن هذه الألف. والمعلوم أن هذا البحث عن الحذف في اللفظ، وأما خطأ فمَرَّ الكلام عليه في بداية البحث عن الاسم.

وأما اشتقاق "اسم" فلم يبحث فيه أحدٌ من المفسرين الذين نحن بصددهم. وأما المتأخرون عنهم، فهم أسهبوا فيه بكثير من التفصيل، وأغلبتهم انقسمت إلى رأيين: فريق ذهب إلى أن "اسم" مشتقٌ من "سما يسمو سمو" و الفريق الثاني يرى أنه مشتقٌ من: "وسم يسم وسماً وسمّة". الأول رأي البصريين والآخر رأي الكوفيين، وإن كلام الأخفش يدلُّ على أنه يرى رأي الكوفيين إذ قال في سبب زيادة الألف أنه بسبب سكون الحرف الذي بعدها، وذلك السكون في صورة "وسم يسم وسماً".

والمسألة الأخرى في "اسم" هي: هل الاسم والمسمى واحد أي هل اسم الشيء هو الشيء بعينه، و الاسم صفة زائدة في بسم الله الرحمن الرحيم والمراد به "بالله الرحمن الرحيم" أم هو غيره؟

وتصدّى لهذه المسألة أبو عبيدة في مجاز القرآن، والأخفش الأوسط في معاني القرآن والطبري في جامع البيان، فالعلم الأول الذي سبق إلى هذا البحث هو أبو عبيدة إذ قال: "بسم الله إنما هو بالله لأن اسم

٣٩- الأخفش، معاني القرآن، ص ١٢٥، ومن الجدير بالذكر أن مكي بن أبي طالب القيسي ذكر في مشكل إعراب القرآن له: فإن كتبت بسم الرحمن أو بسم الخالق حذفت الألف أيضاً عند الأخفش والكسائي، وقال الفراء لا تحذف إلا في بسم الله فقط فإن أدخلت على اسم الله غير الباء من حروف الحذف لم يجز حذف الألف عند أحد نحو قول: ليس اسم كاسم الله. وقولك: لاسم الله حلاوة. المكي بن أبي طالب القيسي، مشكل إعراب القرآن، ١/٥.

٤٠- الأخفش، معاني القرآن، ص ١٢٦.

الشيء هو الشيء بعينه" (٤١) واستشهد على ما ذهب إليه بقول لبيد (٤٢):

إِلَى الْحَوْلِ نُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا * وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَدَرَ (٤٣)

وإلى المذهب نفسه ذهب الأخفش الأوسط في معاني القرآن له، ولا يكتفي بذكر رأيه فحسب بل يضيف إليه سبب ورود كلمة "اسم" وحكمتها في البسمة، فيقول: "اسم صلة زائدة، زيدت ليخرج بذكرها من حكم القسم إلى قصد التبرك، لأن أصل الكلام بالله" (٤٤). أي وإن بدئ كلام الله تعالى بعبارة "بالله" مكان "باسم الله" لتشكّل الأمر في كونه القسم أو التبرك، فزيد "اسم" ليتبين أنه للتبرك لا للقسم. وأمّا الطبري فيرى بالعكس، وأطال الكلام في ردّ أبي عبيدة فيقول: "وإنما معنى قوله "بسم الله": أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء"، ويذهب إلى أن "الاسم" المضاف إلى الله هو ليس باسم بل هو مصدر بمعنى التسمية (٤٥). ثم يقول مبيّناً السبب في جواب سؤال ممكن:

"إن العرب قد تخرج المصادر مبهمّة على أسماء مختلفة، كقولهم: أكرمت فلاناً كرامةً، وإنما بناء مصدر أفعلت - إذا أخرج على فعله - الإفعال. وكقولهم: أهنت فلاناً هواناً، وكلمته كلاماً. وبناء مصدر "فعلت" التفعيل. ومن ذلك قول الشاعر:

أَكْفُرًا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمِئَةَ الرَّتَاعَا (٤٦)

٤١ - أبو عبيدة، مجاز القرآن، ١/١٦.

٤٢ - هو لبيد بن ربيعة بن مالك، ويكنى بأبي عقيل العامري: أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، من أهل عالية نجد، أدرك الإسلام، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم ويعدّ من الصحابة، ومن المؤلفّة قلوبهم. وترك الشعر، فلم يقل في الإسلامي إلا بيتاً واحداً، قيل هو:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

وسكن الكوفة، وعاش عمراً طويلاً. وهو أحد أصحاب المعلقات. انظر: الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٥، ٢٠٠٢م، ٥/٢٤٠.

٤٣ - ديوان لبيد بن ربيعة، اعتناء: حمد وطماس، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ٥١، البيت من الطويل من قصيدته التي يخاطب فيها ابنته لما حضرته الوفاة، ومطلع القصيدة:

تَمَّتْ ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

٤٤ - الأخفش، معاني القرآن، ١٢٥.

٤٥ - الطبري، جامع البيان، ١/١١٥-١١٧.

٤٦ - والشعر للقطامي، وهو عمير بن شبيب بن عمرو التغليبي، انظر: ديوان القطامي، ج. برث، ليدن، ١٩٠٢م، ص ٤١. العطاء بمعنى الإعطاء، ولذلك نصب به "المئة". والرتاع جمع راتع: يعني الإبل ترتع في مرعى خصيب تذهب فيه وتجيء.

يريد: إعطائك. ومنه قول الآخر:

وَإِنْ كَانَ هَذَا الْبُخْلُ مِنْكَ سَجِيَّةً لَقَدْ كُنْتُ فِي طَوْبِي رَجَاءَكَ أَشْعَبًا (٤٧)

يريد: في إطالتي رجاءك. ومنه قول الآخر:

أَظْلِمُ إِنْ مُصَابِكُمْ رُجُلًا أَهْدَى السَّلَامَ تَحِيَّةً ظَلَمُ (٤٨)

يريد: إصابتكم. والشواهد في هذا المعنى تكثُر، وفيها ذكرنا كفاية، لمن وُفِّق لفهمه.

فإذا كان الأمر - على ما وصفنا، من إخراج العرب مصادر الأفعال على غير بناء أفعالها - كثيرًا، وكان تصديرها (٤٩) إياها على مخارج الأسماء موجودًا فاشيًا، فبيِّنْ بذلك صواب ما قلنا من التأويل في قول القائل "بسم الله"، أن معناه في ذلك عند ابتدائه في فعل أو قول: أبدأ بتسمية الله، قبل فعلي، أو قبل قولي. وكذلك معنى قول القائل عند ابتدائه بتلاوة القرآن: "بسم الله الرحمن الرحيم"، إنما معناه: أقرأ مبتدئًا بتسمية الله، أو أبتدئ قراءتي بتسمية الله. فجعل "الاسم" مكان التسمية، كما جعل الكلام مكان التكليم، والعطاء مكان الإعطاء" (٥٠).

ثم يستشهد بقول ابن عباس المذكور أعلاه، ويستدل به على صحته ما قال هو وفساد ما قال غيره. وهكذا يستدل الطبري بإجماع العلماء على هذه المسألة: أن قائلًا لو قال عند تذكّيته بعض بهائم الأنعام "بالله"، ولم يقل "بسم الله"، أنه مخالف - بتركه "بسم الله" ما سُنَّ له عند التذكية من القول (٥١). وفي جواب استشهاد أبي عبيدة بقول لبيد يقول الطبري: "قيل له: لو جاز ذلك وصح تأويله فيه على ما تأول، لجاز أن يقال: رأيت اسم زيد، وأكلت اسم الطعام، وشربت اسم الشراب، وفي إجماع جميع العرب على

٤٧- الطبري، جامع البيان، ١/١١٦، وفي الحاشية: لم أجد البيت. وأشعب: الطماع الذي يضرب به المثل في الطمع المستعر.

٤٨- المرجع السابق: الصفحة نفسها، وفي الحاشية: الشعر للحارث بن خالد المخزومي، وهو الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي، من قريش: شاعر غزل، من أهل مكة، نشأ في أواخر أيام عمر بن أبي ربيعة، وكان يذهب مذهبه، وتوفي سنة ٨٠هـ. انظر: الأعلام، ٢/١٥٤.

٤٩- المرجع السابق: ١/١١٧، وفي الحاشية: أراد بقوله: تصديرها: "أي جعلها مصادر تصدر عنها صوادر الأفعال، وذلك كقولك: ذهب ذهابًا، فذهب صدرت عن قولك "ذهاب"، ويعمل عندئذ عمل الفعل. وعنى أنهم يخرجون المصدر على وزن الاسم فيعمل عمله، كقولك "الكلام" هو اسم ما تتكلم به، ولكنهم قالوا: كلمته كالمصدر، فوضعوه موضع التكليم، وأخرجوا من "كلم" مصدرًا على وزن اسم ما تتكلم به، وهو الكلام، فكان المصدر: "كلامًا".

٥٠- المرجع السابق، ١/١١٦، ١١٧.

٥١- المرجع السابق، ١/١١٨.

إحالة ذلك ما ينبى عن فساد تأويل من تأول قول لبيد: "ثم اسم السلام عليكما"، أنه أراد: ثم السلام عليكما، وادّعائه أن إدخال الاسم في ذلك وإضافته إلى السلام إنما جاز، إذ كان اسم المسمّى هو المسمّى بعينه. ويُسأل القائلون قول من حكينا قوله هذا، فيقال لهم: أتستجيزون في العربية أن يقال: "أكلتُ اسمَ العسل"، يعني بذلك: أكلت العسل، كما جاز عندكم: اسم السلام عليك، وأنتم تريدون: السلامُ عليك؟ فإن قالوا: نعم! خرجوا من لسان العرب، وأجازوا في لغتها ما تخطّته جميع العرب في لغتها. وإن قالوا: لا سئلوا الفرقَ بينهما: فلن يقولوا في أحدهما قولاً إلا ألزموا في الآخر مثله" (٥٢).

والكلمة الثالثة: "الله" ذات مقطعين: منغلق قصير ومنغلق طويل. وهما: "أل" (ص+ح+ص) أي (cvc) و"لاه" (ص+ح+ص) أي (cv:c). كلاهما منغلقتان أي ينتهيان بصامت، والفرق بينهما أن الأوّل فيه حركة قصيرة وفي الثاني حركة طويلة. نثر على بذرة البحث في المصادر التفسيرية القديمة حول هذه الكلمة، من قول ابن عباس رضي الله عنهما، ما ورد في جامع البيان للطبري عنه، قال: "الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين" (٥٣). وعليه انبنى رأي الطبري: "هو الذي يألّه كل شيء، ويعبده كل خلقٍ" (٥٤). وأمّا من حيث بنية الكلمة فلا نجد في ديوان العرب من "فعل يفعل" سماعاً، كما يعترف به الطبري، ولكنّ هذا البناء فقط من قبل الاستدلال. ويقول أن العرب قد استخدموا "تألّه" للعبادة وطلب ما عند الله، ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج (٥٥):

لله دُرُ الغانياتِ المُدّه
سبَحَنَ وأَسْتَرَّ جَعَنَ مِنْ تَأَلَّهِ (٥٦)

- ٥٢- المرجع السابق، ١١٩/١ - ١٢٠.
- ٥٣- المرجع السابق، ١/ ١٢٣، والسند فيه: عن الطبري عن أبي كريب قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمار، قال: حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس. ونقله السيوطي في الدر المنثور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م، ٢٩/١.
- ٥٤- الطبري، جامع البيان، ١/ ١٢٢.
- ٥٥- رؤبة بن العجاج: هو أبو محمد رؤبة بن العجاج بن عبد الله بن رؤبة البصري التميمي السعدي، هو وأبوه راجزان مشهوران، لكل منهما ديوان رجز ليس فيه شعر سوى الأراجيز، وهما مجيدان في رجزهما، وكان رؤبة بصيراً باللغة قياً بحواشيها وغريبها، قد أدرك زمن الدولتين: الأموية والعباسية، وكان مقيماً بالبصرة ثم خرج إلى البادية، فأدركه أجله عندما وصل إلى الناحية التي قصدتها في سنة ١٤٥هـ وكان قد أسن. سير أعلام النبلاء، ٦/ ١٦٢، الأعلام، ٣/ ٣٤.
- ٥٦- البيت في ديوان رؤبة بن العجاج، اعتناء وليم بن الورد الروسي، دار ابن قتيبة، الكويت، دون تاريخ، ص ١٦٥، من قصيدة قالها في وصف نفسه، المده: جمع مده. ومدّه فلاناً يمدّه مدّها: نعت هيبته وجماله وأثني عليه ومدحه. واسترجع: قلن إنا لله وإنا إليه راجعون. يقلن حسرة عليه كيف تنسك وهجر الدنيا، بعد الذي كان من شبابه وجماله وصوته!

يعني: من تعبدي وطلبني الله بعمله (٥٧).

ثم يقول: "ولا شك أن التألّه" التفعّل من "ألّه يألّه"، وأن معنى ألّه - إذا نُطق به - عَبَدَ الله. وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت منه بـ: فعل يفعل، بغير زيادة" (٥٨). ويستدلّ عليه برواية سفيان بن وكيع قال: حدثنا أبي، عن نافع بن عمر، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس: "أنه قرأ "وَيَذَرُكَ وَإِلَهِتَكَ" (٥٩)، قال: عبادتكَ، ويقال: إنه كان يُعبد ولا يُعبَد" (٦٠).

وكذلك كان عبدُالله يقرؤها ومجاهد. وقال مجاهد: وعبادتكَ (٦١).

ثم يقول الطبري شارحاً هذه الروايات: "ولا شك أن الإلاهة مصدرٌ من قول القائل: ألّه الله فلانٌ إلاهةً، كما يقال: عبَدَ الله فلانٌ عبادةً، وعَبَرَ الرؤيا عبارةً. فقد بيّن قولُ ابن عباس ومجاهد هذا: أن "ألّه" عبَد، وأن "الإلاهة" مصدره" (٦٢).

الله من كلام العرب: أصله: الإله، إليه ذهب الطبري و استشهد بما جاء في القرآن الكريم:

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ (٦٣) لما ذهب إليه. فيقول: "أصله: لكن أنا، هو الله ربي، كما قال الشاعر:

وَرَبِّمِينِي بِالطَّرْفِ، أَي أَنْتَ مُذْنَبٌ وَتَقْلِينِي، لَكِنَّ إِيَّاكَ لَا أَقْلِي (٦٤)

يريد: لكن أنا إياك لا أقلي، فحذفت الهمزة من "أنا" فالتقت نون "أنا" ونون "لكن" وهي ساكنة، فأدغمت في نون "أنا" فصارتا نوناً مشددة. فكَذلك "الله" أصله "الإله"، أسقطت الهمزة التي هي فاء الاسم، فالتقت اللام التي هي عين الاسم، واللام الزائدة التي دخلت مع الألف الزائدة وهي ساكنة،

٥٧- الطبري، جامع البيان، ١/ ١٢٣.

٥٨- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٥٩- وفي المصحف: ﴿وَيَذَرُكَ وَإِلَهِتَكَ﴾، سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

٦٠- انظر: الطبري، جامع البيان، ١/ ١٢٣، ورواية أخرى في ١/ ١٢٤، برواية: سفيان، قال: حدثنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن محمد بن عمرو بن الحسن، عن ابن عباس: "وَيَذَرُكَ وَإِلَهِتَكَ"، قال: إنها كان فرعونٌ يُعبَد ولا يُعبَد.

٦١- والرواية في جامع البيان للطبري، ١/ ١٢٤ - ١٤٤ وفيه: حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين بن داود، قال: أخبرني حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد: قوله "وَيَذَرُكَ وَإِلَهِتَكَ" قال: وعبادتكَ.

٦٢- الطبري، جامع البيان، ١/ ١٢٤.

٦٣- سورة الكهف، الآية: ٣٨.

٦٤- الطبري، جامع البيان، ١/ ١٢٥.

فأدغمت في الأخرى التي هي عين الاسم، فصارتا في اللفظ لأمًا واحدة مشددة، كما وصفنا من قول الله: لكنَّ هوَ اللهُ رَبِّي" (٦٥).

هي أولى الجهات التي جاءت في اشتقاق كلمة "الله" ومن الملحوظ في تفاسير المتأخرين أنهم قالوا فيها قولين: أولاً: أنها مرتجلة، والثانية أنها مشتقة، والذين يرونها مشتقة انقسموا إلى رأيين: أولاً: أنها مشتقة من "أله ياله" كما مرّ. وثانياً: أنها مشتقة من "لاه" وعليه أدخلت لام التعريف فصارت "الله". واشتقاقه من "لاه يليها إذا تستر" كأنه - تعالى - يسمّى بذلك لاستتاره واحتجابه عن إدراك الأبصار. ولهذا المعنى استشهد ببيت شعرٍ لذي الإصبع العدواني (٦٦):

لَا هِ ابْنُ عَمِّكَ لَا أَفْضَلْتَ فِي حَسَبٍ عَنِّي وَلَا أَنْتَ دِيَّانِي فَتَخْزُونِي (٦٧)

وأما الكلمة الرابعة والخامسة: "الرحمن" و "الرحيم"، فكلُّ واحدٍ منهما ذات ثلاثة مقاطع، "الرحمن" على منغلق قصير و منغلق قصير ومنغلق طويل، وهي: "أَزْ" (ص+ح+ص) (CVC)، و "رَحْ" (ص+ح+ص) (CVC) و "مَانَ" (ص+ح+ص) (CV:C).

و "الرحيم" ذات مقاطع: منغلق قصير ومفتوح قصير ومنغلق طويل، وهي: "أَزْ" (ص+ح+ص) (CVC) و "زْ" (ص+ح) (CV) و "حِيم" (ص+ح+ص) (CV:C).

لا خلاف بين أحد من المفسرين واللغويين أن كلتي الكلمتين من الرحمة على وزن فَعْلَانٍ و فَعِيلٍ على وجه الترتيب. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الرَّحْمَنُ الْفَعْلَانُ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَهُوَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ (٦٨).

٦٥ - المرجع السابق، ١/١٢٥ - ١٢٦.

٦٦ - انظر للتفصيل: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ١/١٥٨، وأما ذو الإصبع العدواني فهو حُرثان بن الحارث بن محرث بن ثعلبة، من عدوان، ينتهي نسبه إلى مضر. وهو شاعر حكيم شجاع جاهلي. لقب بذئ الإصبع لأن حية نهشت إصبع رجله فقطعها، ويقال: كانت له إصبع زائدة. وعاش طويلاً حتى عدّ في المعمرين. الزركلي، الأعلام، ١٧٣/٢.

٦٧ - انظر: المفضل بن محمد بن يعلى الضبي، المفضليات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط ٧، بدون تاريخ، ٧٠. لاه: الله. وأفضلت أي تجاوزت في الفضل وديان: القيم بالأمر وتخزوني: تسوسني، من خزا يخز وخزواً: ساسه وقهره وملكه.

٦٨ - انظر: تفسير ابن أبي حاتم، ١/٢٥، وفيه: حدثنا علي بن طاهر، ثنا محمد بن العلاء يعني أبا كريب الهمداني، ثنا عثمان بن سعيد يعني الزيات الكوفي، ثنا بشر بن عازرة، عن أبي روق، عن الصَّحَّالِكِ، عن ابنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "أَوَّلُ مَا نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: بِسْمِ اللهِ، يَقُولُ: اقْرَأْ بِذِكْرِ رَبِّكَ وَفَمَّ وَأَفْعُدْ بِذِكْرِهِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: يَقُولُ: الرَّحْمَنُ الْفَعْلَانُ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَهُوَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ".

وفي تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: "الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ: صفتان مبنيتان من الرحمة" (٦٩).

يقول الطبري في بنية "الرحمن" فهو ما قال به عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فيقول: "وأما "الرحمن" فهو فَعْلَانٌ من رَحِمَ" (٧٠). ثم يبين سنة العرب في هذه البنية فيقول: "والعرب كثيراً ما بنى الأسماء من "فَعِلٌ يَفْعَلُ" على فَعْلَانٍ، كقولهم من غَضِبَ: غَضِبَانٌ، ومن سَكَرَ: سَكَرَانٌ، ومن عَطَشَ: عطشانٌ. فكذلك قولهم "رَحْمَنٌ" من رَحِمَ" (٧١). وأما الرحيم فيقول الطبري فيه: "و"الرحيم" فعيل منه أي رَحِمَ يَرَحِمُ". ويقول أيضاً: "وقيل "رحيم"، وإن كانت عين "فَعِلٌ" منها مكسورة، لأنه مدح. ومن شأن العرب أن يحملوا أبنية الأسماء - إذا كان فيها مدح أو ذم - على "فَعِيلٌ"، وإن كانت عين "فَعِلٌ" منها مكسورة أو مفتوحة، كما قالوا من "علم" عالم وعليهم، ومن "قدَر" قادر وقدير" (٧٢).

وأما في دلالة الكلمة ففيه أقوال: عن ابن عباس رضي الله عنهما، "الرحمن الرحيم: الرقيقُ الرقيقُ بمن أحبَّ أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعُتف عليه" (٧٣).

ويقول أبو عبيدة فيها في مجاز القرآن: "الرَّحْمَنُ مجازه ذو الرحمة"، و"الرَّحِيمُ مجازه الرَّاحِمُ" (٧٤). وهو على رغم بيان المعنيين المختلفين للكلمتين المختلفتين المشتقتين من أصل واحدٍ، لا يفرِّق بينهما فيسهب قائلًا مبيِّنًا سنَّةَ العرب فيه: "وقد يقَدِّرون اللفظين من لفظ واحد والمعنى واحد، وذلك لانتساع الكلام عندهم، وقد فعلوا مثل ذلك فقالوا: ندمان ونديم" ثم بيَّن استخدام الكلمتين في آيات عربية مختلفة،

٦٩- في باب اشتقاق أسماء الله وصفاته، وإظهار معانيه انظر ابن قتيبة: تفسير غريب القرآن، ص ٦.

٧٠- الطبري، جامع البيان، ١/١٢٦.

٧١- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٧٢- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٧٣- انظر: المرجع السابق، ١/١٢٩، وفيه: حدثنا به أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمار، قال: حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: الرحمن، الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب. قال: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ: الرقيقُ الرقيقُ بمن أحبَّ أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعُتف عليه. وكذلك أسماؤه كلها. ومثلها في تفسير ابن أبي حاتم، ١/٢٦ وفيه: حَدَّثَنَا ابْنُ طَاهِرٍ، ثنا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ يَعْنِي أَبَا كَرِيبٍ الْهَمْدَانِي، ثنا عثمان بن سعيد يعني الزيات، ثنا بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: "أول ما نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، قال له جبريل: قل: ﴿يَسْمُرُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾"، يقول: الرَّحِيمُ: الرَّقِيقُ الرَّقِيقُ لِمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْحَمَهُ، الْبَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْتَفَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ".

٧٤- أبو عبيدة، مجاز القرآن، ١/٢١.

ومنها: قول البرج بن مسهر الطائي الجاهلي (٧٥):

وَنَدْمَانٍ يَزِيدُ الْكَأْسَ طِيْباً سَقَيْتُ وَقَدْ تَغَوَّرَتِ النُّجُومُ

وقول النعمان بن نضلة (٧٦)، عدوي من عدي قريش:

فَإِنْ كُنْتَ نَدْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ أَسْقِنِي وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُتَثَلِّمِ

وقول بريق الهذلي (٧٧):

رُزِينَا أَبَا زَيْدٍ وَلَا حَيٍّ مِثْلَهُ وَكَانَ أَبُو زَيْدٍ أَحْيَى وَنَدِيمِي (٧٨)

وقول حسان بن ثابت (٧٩):

لَا أَحْدِثُ الْحَدِيثَ بِالنَّدِيمِ وَلَا يَحْشَى نَدِيمِي إِذَا انْتَشَيْتُ يَدِي (٨٠)

وبنقل موجز هذا القول يكتفي ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن له فيقول: "قال أبو عبيدة:

وتقديرهما: ندمان ونديم".

٧٥- البرج بن مسهر بن جلاس بن الأثر الطائي: شاعر، من معمرى الجاهلية. كانت إقامته في ديار طيء بنجد. اختار أبو تمام في حماسه أبياتاً من شعره. انظر: الزركلي، الأعلام، ٢/ ٤٧.

٧٦- هو النعمان بن عدي بن نضلة العدوي: شاعر صحابي، من الولاة. هاجر مع أبيه إلى الحبشة، ولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على "ميسان" ولم يولَّ عمر أحداً من قومه (بني عدي) غيره، لما كان في نفسه من صلاحه. توفي سنة ٣٠ من الهجرة. الإصابة، ٦/ ٢٤٣ و الأعلام، ٨/ ٣٨.

٧٧- هو البريق بن عياض بن حويلد الحنّاعي، له شعر. انظر: أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري، شرح أشعار الهذليين. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج ومحمود شاكر، مكتبة دار العروبة، القاهرة، الجزء ٢، ص ٧٤١ - ٧٦٠.

٧٨- والبيت في قصيدة قالها في رثاء أخيه، انظر: ديوان الهذليين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٥م، ٣/ ٦١، وشرح أشعار الهذليين، ٢/ ٧٤٥، والبيت فيها:

أَصْبَنَ أَبَا زَيْدٍ وَلَا حَيٍّ مِثْلَهُ وَكَانَ أَبُو زَيْدٍ أَحْيَى وَنَدِيمِي

٧٩- هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مائة بن عدي بن عمرو بن مالك ابن النجار الأنصاري الخزرجي ثم النجاري، شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال ابن سعد: عاش في الجاهلية ستين وفي الإسلام ستين ومات وهو ابن عشرين ومائة. الإصابة، ٢/ ٨-٩.

٨٠- أبو عبيدة، مجاز القرآن، ١/ ٢١ - ٢٢، وانظر: عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م، ص ١١٢، وفيه:

لَا أَحْدِثُ الْحَدِيثَ بِالنَّدِيمِ وَلَا يَحْشَى جَلِيْبِي إِذَا انْتَشَيْتُ يَدِي

فبحوى القول أن الرَّحْمَنَ والرَّحِيمَ صفتان مشتقتان من أصل واحدٍ "رحم" وذلك لانتساع الكلام عند العرب، وهذا عندهم شائع جداً مثلاً قالوا: ندمان ونديم وغير ذلك. من هذا الشرح ينشأ هنالك سؤال عن أسلوبيّة القرآن الكريم وهي فائدة تكرار هذين الاسمين المشتقين من أصل واحدٍ أي "رحم" ويقول فيه أبو عبيدة أنها لفظان بمعنى واحدٍ، وكيف وقع ذلك في القرآن الكريم المعجز الذي لا تطويل فيه ولا إسهاب ولا حشو؟ ولم هذا التكرار للفظين من أصل واحدٍ والمعنى واحدٌ؟ يجيب عنه الطبري في جامع البيان: "لكل كلمة منهما معنى لا تؤدى الأخرى منهما عنها"^(٨١). ثم يسوق الطبري تلك الروايات المأثورة والأخبار المنقولة التي يعتمد الطبري عليها في ابتناء رأيه هذا على ثلاثة تأويلات: أولاً: تلك الآثار التي تدلّ على أن الرحمن يدل على عموم الرحمة، والرَّحِيم على خصوص الرحمة^(٨٢). ثانياً: تأويل ابن عباس المذكور في معنى الرَّحْمَن والرَّحِيم، فيقول الطبري: "وهذا التأويل من ابن عباس، يدل على أن الذي به ربُّنا رحمن، هو الذي به رحيم، وإن كان لقوله "الرحمن" من المعنى، ما ليس لقوله "الرحيم". لأنه جعل معنى "الرحمن" بمعنى الرقيق على من رُقَّ عليه، ومعنى "الرحيم" بمعنى الرقيق بمن رفق به"^(٨٣). وثالثاً: ثم بيّن السبب الآخر بتأويل عطاء الخراساني يقول: "كان الرحمن، فلما اختزل الرحمن من اسمه كان الرحمن الرَّحِيمَ"^(٨٤).

ويشرح الطبري هذا القول بقوله: "والذي أراد، إن شاء الله، عطاءً بقوله هذا: أن الرحمن كان من أسماء الله التي لا يتسمّى بها أحد من خلقه، فلما تسمّى به الكذاب مسيلمة - وهو اختزله إياه، يعني اقتطاعه من أسمائه لنفسه - أخبر الله جلّ ثناؤه أن اسمه "الرحمن الرَّحِيمُ" ليفصل بذلك لعباده اسمه من اسم من قد تسمّى بأسمائه، إذ كان لا يسمّى أحد "الرحمن الرَّحِيمُ"، فيجمع له هذان الاسمان، غيره جلّ ذكره. وإنما يتسمّى بعض خلقه إما رحيماً، أو يتسمّى رحمن. فأما "رحمن رحيم"، فلم يجتمعا قط لأحد سواه، ولا يجتمعان لأحد غيره. فكأن معنى قول عطاء هذا: أن الله جلّ ثناؤه إنما فصل بتكرير الرحيم على الرحمن، بين اسمه واسم غيره من خلقه، اختلف معناهما أو اتفقا"^(٨٥).

٨١- الطبري، جامع البيان، ١/١٢٦.

٨٢- المرجع السابق، ١/١٢٧ - ١٢٩.

٨٣- المرجع السابق، ١/١٢٩.

٨٤- المرجع السابق، ١/١٣٠، وفيه: "حدثني به عمران بن بكّار الكلاعي، قال: حدثنا يحيى بن صالح، قال: حدثنا أبو الأزهر نصر بن عمرو اللّخمي من أهل فلسطين، قال: سمعت عطاء الخراساني يقول...".

٨٥- الطبري، جامع البيان، ١/١٣٠.

ثم يعلّق الطبري على قول عطاء الخراساني بقوله: "والذي قال عطاءً من ذلك غير فاسد المعنى، بل جائز أن يكون جلّ ثناؤه خصّ نفسه بالتسمية بهما معاً مجتمعين، إبانة لها من خلقه، ليعرف عباده بذكرهما مجموعين أنه المقصود بذكرهما دون من سواه من خلقه، مع ما في تأويل كل واحد منهما من المعنى الذي ليس في الآخر منهما" (٨٦).

وأما قول أبي عبيدة في مجاز القرآن "أن الرحمن مجازة ذو الرحمة، و الرحيم مجازة الراحم"، وقوله: "قد يقدرون اللفظين من لفظ والمعنى واحد، وذلك لاتساع الكلام عندهم"، فيردّ عليه الطبري ويقول: "ولا شك أن ذا الرحمة هو الذي ثبت أن له الرحمة، وصحّ أنها له صفة، وأن الراحم هو الموصوف بأنه سيرحم، أو قد رحم فانقضى ذلك منه، أو هو فيه" (٨٧).

وبحثنا الأخير في البسملة هو البحث الأسلوبي الآخر: سبب تقديم اسم "الله" على صفتيه "الرحمن الرحيم" وتأخير صفتيه "الرحيم" من صفتيه "الرحمن".

لا نجد هذا البحث عند أحد من المفسرين المذكورين سوى الطبري فهو يقول في هذه المسألة: "قيل: لأن من شأن العرب، إذا أرادوا الخبر عن مُخْبَر عنه، أن يقدّموا اسمه، ثم يتبعوه صفاته ونعوتّه. وهذا هو الواجب في الحكم: أن يكون الاسم مقدّمًا قبل نعته وصفته، ليعلم السامع الخبر، عمّن الخبر" (٨٨).

ثم يستطرد فيها الطبري فيقول: "وكان الله جلّ ذكره أسماً قد حرّم على خلقه أن يتسمّوا بها، خصّ بها نفسه دونهم، وذلك مثل "الله" و "الرحمن" و "الخالق"، وأسماً أباح لهم أن يُسمّي بعضهم بعضاً بها، وذلك: كالرحيم والسميع والبصير والكريم، وما أشبه ذلك من الأسماء - كان الواجب أن تقدّم أسماؤه التي هي له خاصة دون جميع خلقه، ليعرف السامع ذلك من توجّه إليه الحمد والتمجيد، ثم يُتبع ذلك بأسمائه التي قد تسمى بها غيره، بعد علم المخاطب أو السامع من توجّه إليه ما يتلو ذلك من المعاني. فبدأ الله جلّ ذكره باسمه الذي هو "الله"، لأن الألوهية ليست لغيره جلّ ثناؤه من وجه من الوجوه، لا من جهة التسمّي به، ولا من جهة المعنى. وذلك أنا قد بينّا أن معنى "الله" تعالى ذكره المعبود، ولا معبود غيره جلّ جلاله، وأن التسمّي به قد حرّمه الله جلّ ثناؤه، وإن قصد التسمّي به ما يقصد المتسمّي بسعيد وهو شقي، وبحسن وهو قبيح.

٨٦- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٨٧- المرجع السابق، ١/ ١٣٢.

٨٨- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

أَوَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ قَالَ فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ: ﴿أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ (٨٩) فاستكبر ذلك من المقرَّب، وقال تعالى فِي خُصُوصِهِ نَفْسَهُ بِاللَّهِ وَبِالرَّحْمَنِ: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (٩٠).

ثم تُنَى بِاسْمِهِ الَّذِي هُوَ الرَّحْمَنُ، إِذْ كَانَ قَدْ مَنَعَ أَيضًا خَلْقَهُ التَّسْمِيَّ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ قَدْ يَسْتَحِقُّ تَسْمِيَتَهُ بِبَعْضِ مَعَانِيهِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ وَصْفُ كَثِيرٍ مِمَّنْ هُوَ دُونَ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ، بِبَعْضِ صِفَاتِ الرَّحْمَةِ. وَغَيْرِ جَائِزٍ أَنْ يَسْتَحِقَّ بَعْضَ الْأَلُوْهِيَّةِ أَحَدٌ دُونِهِ. فَلِذَلِكَ جَاءَ الرَّحْمَنُ ثَانِيًا لِاسْمِهِ الَّذِي هُوَ "اللَّهُ". وَأَمَّا اسْمُهُ الَّذِي هُوَ الرَّحِيمُ فَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ مِمَّا هُوَ جَائِزٌ وَصَفٌ غَيْرُهُ بِهِ. وَالرَّحْمَةُ مِنْ صِفَاتِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ، فَكَانَ - إِذْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا وَصَفْنَا - وَاقِعًا مَوَاقِعَ نَعَوَاتِ الْأَسْمَاءِ اللَّوَاتِي هُنَّ تَوَابِعُهَا، بَعْدَ تَقَدُّمِ الْأَسْمَاءِ عَلَيْهَا. فَهَذَا وَجْهٌ تَقْدِيمِ اسْمِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ "اللَّهُ"، عَلَى اسْمِهِ الَّذِي هُوَ "الرَّحْمَنُ"، وَاسْمِهِ الَّذِي هُوَ "الرَّحِيمُ" (٩١).

وَفِي بَيَانِ الطَّبْرِيِّ الْمَذْكُورِ تَوْضِيحٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ مَزِيدٍ، وَشَرَحَ لَا حَاجَةَ إِلَى الْكَلَامِ فِيهِ وَالتَّعْلِيْقِ عَلَيْهِ، إِذْ فِيهِ كِفَايَةٌ.

وَإِنَّ الدِّرَاسَاتِ اللَّسَانِيَّةَ الْحَدِيثَةَ تَهْتَمُّ بِ: الصَّوْتِيَّاتِ وَبِنِيَّةِ الْكَلِمَةِ وَبِنَاءِ الْجُمْلَةِ وَالدَّلَالَةِ وَالْأَسْلُوبِ، وَنَحْنُ فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ الْمَوْجِزَةِ لَنَرَى أَنَّ فِي كِتَابِ الْمَفْسَّرِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ ثَرَوَةً وَفِيْرَةً بِهَذَا الصَّدَدِ، وَهِيَ لَغْنِيَّةٌ بِكُلِّ أَبْحَاثٍ لِسَانِيَّةٍ، وَأَمَّا الْمَفْسَّرُونَ الْمُتَأَخَّرُونَ فزَادُوا فِي تِلْكَ الْأَبْحَاثِ حَتَّى أَسْهَبُوا فِيهَا وَطَوَّلُوهَا أَكْثَرَ مِنَ الضَّرُورَةِ وَصَارَتْ تَفَاسِيرُ أَكْثَرِهِمْ أَقْرَبَ مِنْ كِتَابِ اللَّغَةِ وَالنَّحْوِ وَالبَلَاغَةِ مِنْ كِتَابِ التَّفْسِيرِ. وَمَا مِنْ دِرَاسَةٍ لِسَانِيَّةٍ حَدِيثَةٍ إِلَّا نَجَدُ بِذَرْبِهَا فِي أَمْهَاتِ كِتَابِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّتِي دُونَتْ فِي الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى مِنَ الْمُهْجَرَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا الصَّلُوةِ وَالسَّلَامِ.

وَبَعْدَ أَنْ حَلَّلْنَا الْكَلِمَاتِ الْخَمْسَ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا آيَةٌ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حَسَبَ أَصُولِ عِلْمِ الْأَصْوَاتِ الْحَدِيثَةِ مُسْتَقَلَّةً فِي حَالَةِ الْإِفْرَادِ لَنَجِدَ عَشْرَةَ مَقَاطِعَ، كَلِمَتَانِ أَوْ لِيَانِ "بِ، اسْمٌ" تَشْتَمِلُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى مَقْطَعٍ وَاحِدٍ، وَالثَّلَاثِ "اللَّهُ" عَلَى مَقْطَعَيْنِ وَ الرَّابِعِ وَالخَامِسِ "الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ" تَشْتَمِلُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى ثَلَاثَةِ مَقَاطِعَ، فَمَجْمُوعُ الْمَقَاطِعِ عَشْرَةٌ:

٨٩- سورة النمل، الآية: ٦٠-٦٤.

٩٠- سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

٩١- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[قصير]+[عنقودي]+[متوسط+طويل]+[متوسط+متوسط+طويل]+[متوسط+قصير+طويل].
 أربعة مقاطع متوسطة وثلاثة طويلة ومقطعان قصيران ومقطع عنقودي.
 وأما الفونيمات فهي هكذا:

[ص+ح]+[ص+ح+ص]+[ص+ح+ص]+[ص+ح+ص]+[ص+ح+ص]+[ص+ح+ص]+[ص+ح+ص]
 / [ص+ح+ص]+[ص+ح+ص]+[ص+ح+ص]+[ص+ح+ص]+[ص+ح+ص]
 فمجموع الصوامت في هذه المقاطع العشرة:

(١)+(٣)+(٢)+(٢)+(٢)+(٢)+(٢)+(٢)+(٢)+(٢)+(١)= (١٩)، ومجموع الحركات: ١٠×١=١٠ - سبع
 منها قصيرة وثلاث طويلة - فهناك تسعة وعشرون فونيميا في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حسب التحليل
 الإفرادي.

وأما إذا قمنا بالتحليل التركيبي فالنتيجة كالتالي:

"بِس" (ص+ح+ص) (cvc)، "مِل" (ص+ح+ص) (cvc)، "لَا" (ص+ح:) (cv:)، "هَر" (ص+ح+ص) (cvc)، "رَح" (ص+ح+ص) (cvc)، "مَا" (ص+ح:) (cv:)، "نِر" (ص+ح+ص) (cvc)، "رَ" (ص+ح) (cv)، "جِيم" (ص+ح+ص) (cv:c). تسعة مقاطع: [منغلق قصير، منغلق قصير، منغلق طويل، منغلق قصير، منغلق قصير، منغلق طويل] ستة مقاطع منغلقة ومنها: خمسة مقاطع قصيرة وواحد طويل، وثلاثة مقاطع مفتوحة: طويلان و قصير.
 وأما الفونيمات فهي أربعة وعشرون فونيمياً، منها خمسة عشر صامتاً وتسع حركات: ثلاث حركات طويلة و ست حركات قصيرة.

ففي حالة التركيب جاء تخفيف مقطع واحدٍ وأربعة فونيمات.

وأما السبب لهذا النقص أو التخفيف في الحالة التركيبية فهو حذف همزات الوصل في: "اسم، الله، الرحمن، الرحيم". هذه أربع همزات ولكن مبلغ التخفيف خمسة فونيمات فسببه أن همزة "اسم" حذفت مع حركتها ولم يُفدّها تركيبها بكلمة سابقة بحركة إضافية حسب القواعد العربية أنه لا يجتمع الساكنان، وأما الهمزات الثلاث الأخيرة فحدث فيها ما حدث في الأولى ولكنها استفادت كلماتها حركةً بسبب تركيبها بما قبلها، فهذه الهمزات الأخريات تسببت في حذف صامت واحدٍ وأما الهمزة الأولى فسببها حذفت حركة مع صامت. فالنتيجة أن هذه الكلمات الخمس التي تشتمل عليها آية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ اكتسبت ثلاثة فونيمات (ح،ح،ح) وخسرت ثمانية أخرى (ص+ح،ص+ح،ص+ح،

ص+ح) حتى صارت بعد التركيب (٢٩-٨+٣=٢٤) أربعة وعشرين فونياً.
ومن الملاحظ في الكلمات العربية أن الحرف الساكن يتبع المقطع الذي يسبقه أما إذا حُرِّكَ بسبب التركيب أو الآخر فإنه يكون مقطعاً مستقلاً إن كان الحرف اللاحق متحرِّكاً، وإن كان ساكناً فيشكَّل معه مقطعاً جديداً، مثلاً: "م" في "اسم" كان في حالة الأفراد مع سابقيه جزءاً من مقطع "اسم" وأما إذا جاء في حالة التركيب فتركَّب مع اللاحق (ل) وشكَّل مقطعاً جديداً، هكذا "ن" في "الرَّحْمَن".

Abstract

Linguistic Studies of *Basmalah* in the First Three Centuries

Studies in modern linguistics mostly relate to phonetics, the structure of the word (Morphology), structure of the sentence (Syntax) and Semantics. This article tries to highlight worthy contributions of the Qur'ānic exegetes of the first three centuries A.H.

Seeing their abundant and profound knowledge and its application to the interpretation of the Qur'ān, we feel compelled to acknowledge their great contribution to the modern linguistics and we come to know that all the sciences of Arabic Language like Arabic sounds, morphology, syntax, semantics, and rhetorics etc. emerged to understand the Holy Qur'ān and to attain the best knowledge of the meanings and concepts it contains. Therefore, whoever wanted to interpret the meanings of the Holy Qur'ān is compelled to acquire profound knowledge of these sciences of Arabic language. Thus there is a strong correlation and inseparability between the Arabic sciences and the Qur'ānic sciences.

We find that the contributions of the interpreters of the Qur'ān in the first three centuries to the above fields are praiseworthy in that these laid the basic and firm foundations of the linguistics.

The commentaries on the Qur'ān written in the first three centuries after *Hijrah* have been the authentic source for the understanding of the Qur'ān. Hence, these commentaries should be relied upon for the linguistic study of the Qur'ān and Arabic literature as well. This article presents the linguistic study of *Basmalah* in the light of the Qur'ānic commentaries of the above

mentioned era in order to illustrate the extent of Muslims' literary and linguistic contribution to the knowledge of the Qur'ān.
